رواية



وصف البلبل

سلوى بكر

سلوى بكر

وصف البلبل

رواية

يوم دبار

(١)

دخلت مطعم الفندق لأول مرة، ترتدى ثوبا بلون النبيذ الداكن، وشعرها الناعم الخروبى ملموم على الخلف ومعقود بشريط حريرى أسود. جلست إلى جانب صالح، ظهرها إلى الجدار ومشهد الحديقة يبدو كاملا فى عينيها عبر الباب الزجاجى الممتد بديلا لحائط. كانت شجرتا الكينا بأوراقهما الكثيفة المستطيلة الخضراء تهتزان بنعومة ولطف إذ يحركهما الهواء، وتمرح عليهما عصافير وطيور لا تكف عن إرسال تغريب وصفير وزقزقات وشقشقات، أما أسفل الجذعين البنيين الشاحبين، فقد برزت زهرات "البانسيه" المخميلة الناعمة تحوطهما فى التفافات بديعة من اللون الأصفر الزاهى، والبنفسجى الداكن، والقرمزى الرصين، ثم حنك السبع الغامض المثير ذو النتوءات الغريبة، تتأرجح

ألوانه بين الأحمر الباهت، والبرتقالى النارى، وما بينهما من أصفر كركمى، وبصلى محير، ووردى شحيح.

كانت صالة المطعم تبدو كبيرة بالقياس إلى حجم الفندق الصغير، وتعج بالنزلاء من عرب وأجانب ورواد يرتدون ملابس البلاد الوطنية. شرع البعض فى التهام الطعام، بينما كان الآخرون يترقبون دورهم.

تعالت قهقهات وأصوات بكل اللغات لتختلط مع غناء قديم شهير لأم كلثوم؛ مما جعل صالحا منشرحا ومستجيبا لجو المرح المهيمن على المكان، فعلق قائلا وأصابعه تنقر نقرات خفيفة على طرف الطاولة تتسق وإيقاع لحن الأغنية:

ألف رحمة تنزل على روحك يا أم أكلثوم. كنت موحدة العرب من الخليج إلى المحيط فعلا.

كانت تفرش على حجرها منديلا سماوى اللون يتناغم لونه وألوان الستائر الزرقاء الفاتحة وأثاث المطعم الجوزى

الأنيق عندما جاء النادل فوضع أمامهما شرائح الخبز المقطع فى سلة صغيرة، ثم صب الماء فى كأسها، وهو يهم بالذهاب فى حركة تتناسب ونادل فى مطعم.

استوقفه صالح بحركة من يده، رفع كوبا زجاجيا باليد الأخرى وهتف مبتسما:

- نسيتنى يا شيخ.. حرام عليك!.

رد النادل بكلام لم تفهمه وصب الماء متعجلا وانسحب بالسرعة نفسها التى جاء بها.

هكذا قدر لها أن تراه لأول مرة من الخلف، بعد أن دارت برأسها لتتابعه بنظراتها، حتى اختفى خلف الباب الفاصل بين نهاية المطعم ومطبخ الفندق. قد نحيل ممشوق، وشعر أسود متماوج لا يحجب القفا الظاهر، من ياقة القميص، أبيض ناعما يبرز رقبة طويلة مترفعة، تعلو منكبين فسيحين يتسقان واطف العود السمهرى الشاب.

مدت يدها إلى قطعة خبز وقضمتها ومضغت ملتذة، ثم قالت لصالح وهى تبتلع الخبيز وترتفع السلة وتمدها له ليتناول منها قطعة: عيش شهى، مخبوز على الأصول، شم! خميرته ممتازة، والدقيق أبيض فل، وا الواحد يقدر يغمسه بحبة ملح ويشبع.

ابتسم صالح ابتسامته المبرزة للسمة الوحيدة المميزة الموروثة عنها:

غمازة فى خده الأيمن.. ورد: البلد كلها جميلة، والطبيعة رائعة، وعموما ميزة البلاد الصغيرة تكون فى الخدمات أساسا. عندنا الرغيف لازم يبقى زفت طبعا، لأن الطلب عليه شديد والاستهلاك مستمر فى النهار والليل. لأنهم يشمموه النار ويطلعوه بسرعة وهو مازال عجينة، الحقيقة أن تعداد السكان فى بلدنا زاد جدا يا ماما.

عندئذ جاء النادل مرة أخرى ووضع أطباق المقبلات أمام الجالسين إلى الطاولة الأخرى المقابلة لطاولتهما: رجل بشعر أبيض تماماً وبشرة محمرة، إلى جانبه آسيوية سمراء بعيون ضيقة وشعر حريرى، حجمها نصف حجمه تقريباً.

استدارت هى مرة أخرى برأسها لتنظر إليه، وهو يضع ما جاء به من أطباق. رأت وجهه كاملا لأول مرة، فهتف داخلها المهتز بنشوة مفاجئة:

بسم ا ، ما شاء ا ، شاب جميل جدا.

لم تحد ببصرها عن العينين الواسعتين اللتين تضمان الحدقتين الليلتين، وعن الأنف المستقيم والفم الرقيق وهذا الخد الأسيل؛ أعلنت لروحها إيمانها بالجمال مرة اخرى، وانتابها شعور مبهم فأخرجت مشطا من حقيبتها وسرحت شعرها الذى لم يكن بحاجة إلى تسريح ومسدته بيدها، ثم راحت تتطلع إلى مشهد الحديقة وتنهدت فى ارتياح.

جاء الدكتور إبراهيم وزوجه وجلسا قبالتهما إلى المائدة. وكانت قد تعرفت بهما قبل ذلك فى المطار قبل إقلاع الطائرة من القاهرة، حاولت تذكر اسم زوجة الدكتور دون جدوى.

أعاد صالح التعريف بالقادمين، فكفت عن قدح ذهنها لتذكر اسم الزوجة، وراحت تتأملها، وابنها يقول:

الدكتور إبراهيم يا ماما، ومدام نيلى: طبعا أنا عرفتك بهما فى المطار بسرعة، ولكن الدكتور ملك جراحات الحنجرة فى مصر. أستاذى وأستاذ الأساتذة، يده تستحق اللف فى حرير.

ها ها ها، قهقه إبراهيم، وابتسمت زوجه ابتسامة متحفظة، ردت عليها أم صالح بأحسن منها حتى بانت غمازة خدها، ثم شكراً، شكراً يا صالح قالها الدكتور إبراهيم.

لم يقطع ذلك استرسالها فى تأمل زوجة الدكتور. لاحظت لون شعرها الأحمر النارى وحاجبيها الأسودين

المزججين بقلم بنى فاتح لم ينجح فى إخفاء اللون الأصلى للشعيرات الداكنة، ثم قميصها الموصلين الكحلى وعقد اللؤلؤ المتدلى صفين على صدرها. بدت المرأة فى نظرها أنيقة بالمقارنة مع زوجها الذى كان هندامه غير منسجم بالقميص الرمادى والسروال الأسود وربطة العنق الخضراء خضرة البرسيم وقد تدلت على صدره بلا معنى أو وظيفة.

استأنف صالح مهمة التعريف، فأشار إلى أمه قائلا:

ماما يا دكتور إبراهيم أعظم وأحن أم فى الدنيا، أولا، ثم مديرة علاقات عامة فى شركة المعادن الثمينة، ثانياً، وهبت من حياتها عشرين سنة بالتمام والكمال للعبد بعد وفاة بابا، ا يرحمه، أرملة فى الحقيقة منذ نعومة أظافرها.

ضحك صالح لدعابته عن أمه وراح يربت عليها، وكانت هى قد شعرت ببعض الحرج والضيق، لأنها لا تحبذ

الحديث فى قصة ترملها، لكن ها هى ذى تدخل فى بؤرة القصة تماماً عندما قالت زوجة الدكتور إبراهيم بدهشة:

مستحيل! واضح إنك تزوجت صغيرة جداً، وترملت بسرعة، سبحان ا !

كلام سمعته الأرملة مرات ومرات، التفاصيل حكاها ابنها باختصار وهو يقطع اللحم فى طبقه بالسكين.

ماما زفوها لبابا وعمرها خمس عشرة سنة، وولدتنى بعد سنة واحدة من الزفاف، لكن بابا توفى بعد سنتين من تاريخ ولادتى، وأنا لا أتذكره على الاطلاق، ولا أتذكر وجوده معنا فى البيت.

لا حول ولا قوة إلا با . قال الدكتور إبراهيم.

يا روحى. قالت زوجته بعد التصعب.

لم تنطق المرأة الأم الأرملة موضوع التأسى بأية كلمة، وكأن الحديث يدور عن امرأة أخرى فى فيلم من الأفلام،

واكتفت بالتبسم ابتسامة باهتة تعليقا على الجميع الذين لم يمنعهم الكلام عن الإقبال على طعامهم بشهية وحماس.

وهكذا أثناء الغداء، لاك الجميع مع الابن القصة الشهيرة للأرملة هاجر صفوت التى تسأل عادة من الآخرين: لماذا لم تتزوجى مرة أخرى بعد وفاة زوجك؟ وكيف تحملت الحياة وحيدة بلا رجل طيلة سنوات شبابك حتى الآن؟! فيكون عليها أن تجيب الإجابة التاريخية التى حفظتها عن ظهر قلب منذ زمن طويل لكثرة ما قالتها ورددتها :

بصراحة خفت من عدم التوفيق بين حبى لابنى، وحبى لإنسان آخر، خفت أن أتعس ابنى، وأتعس الشخص الآخر، وأبقى فى الوسط حيرانه، وموزعة بين الاثنين، يا ا كل شئ قسمة ونصيب.

لكن أحداً لا يعرف حقيقة عزوفها عن الزواج غير صالح، الحقيقة التى تمنت قولها لكل الناس وأن يعرفها

الجميع، لكنها لم تستطع البوح بها أبداً، على رغم عذابها المقيم، والجحيم الذى عاشته ومازالت تعيشه بسبب هذه الحقيقة، إلى درجة أنها كرهت أمها وأباها والناس أجمعين، بل كرهت روحها والحياة كلها ذات يوم من الأيام.

هل تقول للناس إنها سرقت، خطفت، ابتزت، استغفلت، بيعت وهى زهرة ناضرة بأبخس الأثمان؟!؛ هل تقول لهم إنها زفت إلى رجل ميت، إلى جثة ترتدى الأكفان؟!؛ هل تخبرهم أنها لم تكن أكثر من أرض جرى وطؤها وحرثها وبذرها لتمنح الحياة؟! ماذا تقول وهى تشعر فى كل لحظة بالعار، وبأنها مدنسة؟ امرأة جرى اغتصابها منذ زمن بعيد، اغتصاب روحها قبل اغتصاب جسدها، امرأة جرى اختزالها واختصارها وتلخيصها وتقليصها فى تعريف بسيط: مهبل للإمتاع ورحم للإنجاب!

كان النادل يروح ويجئ حاملا أكوابه واطباقه ولزوم ما يلزم لخدمة النزلاء، بينما هى تتأمله بنظراتها، تتمعن فى العينين والشفتين والوجنتين، وبقية القسمات.

فجأة وجدت نفسها تتذكر جدتها وهى تجلس فى حجرتها ذات السقف العالى فى بيتهم القديم تتوسط حاشيتها الخاصة، التى حشتها بما جمعته من شعر رأسها المتساقط، والذى كانت تستحرم رمية دائما وتقول إنه يجب تكريمه فهو جزء من أكرم خلق ا ولا يجب رميه أو الإلقاء به بين الوسخات. تجسدت فى عينيها صورة الجدة وهى تمسد شعرها الرمادى الغزير الذى لم يعرف المقص طريقا إليه منذ ولادتها، وتفرده على ساقها حتى يصل إلى مشط قدمها، فتلفه على إصبعها الكبير حتى تتحكم فى تمشيطه ويتيسر لها تسليكه، ثم تأخذ فى سرد حكاية يوسف الصديق وما كان من أمر "زليخة" امرأة العزيز معه، وشأنها مع صاحباتها عندما

لمنها على غرامها وولعها بيوسف الصغير؛ إذ أدخلته عليهم فجأة وكن يأكلن تفاحا ويسخرن من افتتانها بالشاب الوافد الغريب، فما كان إلا أن أخذتهن الصيحة من وقع جماله ورحن يقطعن بالمدى أصابعهن وراحاتهن بدلا من التفاحات دون أن يشعرن، وهن مأخوذات مبهوتات، مبهورات بالطلعة البهية للكوكب الدرى المطل عليهن. وألجمتهن المفاجأة، فسكتن عن الكلام وكأن مسا من السحر قد أصابهن، فلما رأتهن امرأة العزيز على هذى الحال لم تشمت فيهن أو تلحف عليهن بالسؤال، بل تنهدت وزفرت بحرارة وهى تقول: ألم أحك وأقل لكن يا عزيزاتى ولم تصدقننى؟! الآن أدركتن كم كنت معذورة مكروبة، مسلوبة، تعسة، مرتبكة، مفتونة بغرامه وهيامه، فأجابتها الصاحبات وقد اعتراهن الخجل والكسوف: آمنا. ونعم با .

أما هى، هاجر الطفلة الصغيرة التى كانتها ذات يوم فكانت تتساءل بدهشة وهى تضحك لحكاية جدتها عن يوسف:

هل صحيح يا نينة أن كل واحدة قطعت يدها ونزل الدم منها لما شافت سيدنا يوسف؟! شئ غريب فعلا!.

لكن الآن فى هذه اللحظات، لو كان فى يدها تفاحة، لقطعت راحتها بدلا منها، إنها مبهورة مأخوذة، مضطربة كصاحبات امرأة العزيز، فثمت شئ يفتنها فى وجه هذا الشاب، شئ يمسها ويلامس روحها، ربما البراءة والصدق المطلان من عينيه، وربما هذا التعبير الغريب المترفع الأشبه بالاحتجاج، أو الصراخ الصامت المكتوم، أو الغضب أو الضيق. لا تدرى لكنها على أية حال تشعر أنها تبالغ بالتمعن فى النادل؛ ربما لضيقها وضجرها من الحديث عن حياتها وترملها، أو لشعورها الغامض بعدم الارتياح لزوجة الدكتور

إبراهيم، على رغم أنها لم تتعرف عليها إلا منذ فترة قليلة لا تكفى لتكوين فكرة صحيحة عنها، لكن ربما يكون سبب عدم ارتياحها، هو طريقة المرأة فى مضغ الأكل، تلك الطريقة التى تجعل فكها يبدو كسلحفاة كئيبة، أو حركة شفتيها الغريبة أثناء الكلام كما لو كانت على وشك البصق، تمنت انتهاء الطعام سريعا والذهاب إلى غرفتها، لكنها فكرت فيما بعد ذلك. فى ذهابها مع هذه المرأة لتتجولا بالمدينة معا، بينما يذهب ابنها مع الدكتور إبراهيم إلى المؤتمر وهو سبب حضورهم جميعا إلى هذا البلد، وفى لقائهم مرة أخرى بعد ذلك وقت العشاء. تمنت أن تظل وحيدة أو أن تذهب منفردة إلى المدينة لكن ابنها زاد من وطأة الأمر، وقطع عليها خط الرجعة، عندما قال:

ماما.. لا داعى لانتظارنا على العشاء لو تأخرنا: كلى مع مدام نيلى.

فقالت وهى تتأهب لمغادرة المكان، وقد أسقط فى يدها، ولم تستطع التهرب من نيللى:

حاضر.. حاضر.

(٢)

هاجر صفوت، المرأة الخواء التى هى أنا، عندما تلقى برأسها على الوسادة لا تفكر فى أى هم فى حياتها ماعدا صالحا، ليس لأنه الرجل الوحيد فى حياتها، ولا لأنه الإنسان الأهم فى هذه الحياة فقط ولكن لأنها تشعر دوما بأن وجودها بلا معنى، فهى ميتة منذ زمن بعيد، ميتة كما لو كانت لم تولد فى الأصل. إن وجودى واستمرارى فى الحياة يتمحور حول مسائل من نوع: هل أكل صالح جيدا وكما يجب؟ هل نام هذه الليلة مستريحا؟ آه.. لو تأخر عن موعده نصف ساعة ذات يوم! تأكلنى نيران القلق والحيرة والخوف.أنا أشبه تلك المرأة التى يحكى عنها فى قصة من القصص، والتى كانت لا تضحك ولا تبتسم أبدا، بل كانت متجهمة طيلة

الوقت، وكانت تعيش وحيدة لا أقارب لها ولا أصحاب، اللهم إلا طفل صغير تربيه وتحنو عليه،وفى أحد الأيام فوجئ الناس بها تفتح شباكها وتضحك، فلما سألوها عرفوا أن الطفل قد مات.

ثمانية وعشرون عاما، ولا كائن فى حياتى غير صالح، لا رجل فى قلبى أو فى عقلى غير صالح، لقد حاول آخرون احتلال موقع والدخول إلى حياتى بجانبه، وحاولت أنا مرة إشراك آخر لكن بلا جدوى، فأنا لا أشرك به أحدا، حاول أهلى تزويجى ذات يوم بعد وفاة زوجى بسنوات قليلة، لكنى رفضت بشدة إلى درجة التهديد بالانتحار كنت وقتها فى الثالثة والعشرين من عمرى تقريبا، وبعد جدال وصراع معهم استقر الأمر على أن تلازمنى "مال" خادمة جدتى السوداء التى كان جدها عبدا لوالد جدتى، وهكذا ظلت "مال"

معى فى البيت حتى لا أكون وحيدة وطفلى الصغير بلا ثالث أو حارس.

بعد دخول صالح المدرسة شعرت بوحشة ووحدة طاغية، وحتى لا أنهار قررت العمل؛ إذ أن الوقت الفارغ قد أخذ فى افتراسى شيئا فشيئا، وأنا أدور بلا هدف بين حجرات الشقة الفسيحة، تعتصرنى ذكريات زواج مقيت، ما كاد يبدأ حتى انتهى أسوأ نهاية يمكن أن تعيشها شابة صغيرة لم يكتمل نضجها بعد. تركت البيت لأعمل سكرتيرة فى الشركة العامة للمعادن النفيسة، سكرتيرة للمدير الإدارى أولا، ثم سكرتيرة للمدير التجارى بعد ذلك، ونظرا إلى فرنسيتى الممتازة، وإنجليزيتى العرجاء، إضافة إلى عملى المتقن ومظهرى المناسب، حزت بعد خمسة عشر عاما من العمل والتنقل فى وظائف إدارية مختلفة على وظيفة مديرة العلاقات العامة فى الشركة.

خلال تلك السنوات الطويلة الممتدة وضعت سدا منيعا بينى وبين الرجال، ولكن... لا.. لم أكن أنا التى وضعت هذا السد وذلك الجدار الرهيب العالى الذى حال بينى وبين الرجال، لكنها تلك الأوراق المرعبة. التى عثرت عليها ذات يوم بالصدفة بينما كنت أفتش فى أدراج مكتب زوجى بعد وفاته بشهور. تلك الأوراق التى تحولت بالنسبة إلي إلى تعويذة سحرية شريرة، وطلسم من طلاسم الجن تركه لى الزوج الميت. ليحول بينى وبين أى رجل آخر طوال حياتى كلها.

بعد سنة من تعيينى فى شركة المعادن، عبر المدير الإدارى، الذى كنت أعمل سكرتيرة له آنذاك، عن مشاعرة العاطفية تجاهى. كان رجلا ينتمى إلى الأرستقراطية القديمة، درس إدارة الأعمال فى "كامبريدج" وكان والده أحد كبار المساهمين فى شركة المعادن النفيسة قبل تأميمها، وقد ظل

مديرى يتعامل مع نشاط الشركة بعدم جديه واستخفاف، ويعبر عن رأيه فى الحياة الجديدة بعد الثورة وعبد الناصر طوال الوقت، لم يكن حاقدا على الثورة ولا متعاطفا مع عبد الناصر، بل بدا لى شامتا أبديا فى الطبقات القديمة المنهارة، ويرى أنها بعد خروج الإنجليز من مصر أصبحت كالقطط المدللة البائسة التى تركها أصحابها فى الشوارع وغادروا إلى مكان غير معلوم. كنت أجده رجلا مهذبا راقيا فى سلوكه معى ومع جميع العاملين فى الشركة على رغم ما يشاع عنه من أنه سكير لا يفارق مائدة القمار كل ليلة، على أية حال لم يكن هو يخفى ذلك، وكان عندما يزوره بعض الخبراء الأجانب، يخرج كؤوسا وزجاجة خمر من دولاب مكتبه ويحتسى معهم كأسا.

بينما كنت أناوله بعض الملفات ذات مرة علق مديرى المهذب على ملابسى، وقال إنها تلائم عجوزا فى الستين، أو

راهبة فى دير، ولا تليق بشابة لم تبلغ الثلاثين بعد، وافقته واكتفيت بالابتسام، ولما سافر إلى فرنسا بعد ذلك فى مأمورية عمل، أحضر لى قميصا من الحرير الوردى، لم أرتده أبدا، ورددت هديته بعد فترة فى صورة قلم ذهبى، بمناسبة عيد ميلاده، الذى احتفل به جميع العاملين فى الإدارة ذات يوم، عندما كنت أهم بالخروج من مكتبه، بعد توقيعه على طلبى لإجازة سنوية، اقترب منى فجأة، ثم أمسكنى من ذراعى وهو يتساءل: لماذا أبالغ فى دور الأرملة الحزينة والأم المتفانية؟ وقال إنه يرى أن الدور لا يليق بى كما أتصور، وإنه لن يلاحقنى إذا كنت لا أرغب فى إقامة علاقة معه، وأننى يجب أن أكون واضحة محددة. كدت أضعف أمام كلماته الصريحة وجرأته التى لم تقلل فى نظرى من رقته وتهذيبه ورقى سلوكه بالقياس إلى معظم الرجال الذين صادفتهم فى شركة المعادن، فأنا لم ألمحه مرة يهرش بين

فخذيه وهو يسير مثلما يفعل بعضهم، ولم أضبطه يختلس فى أى وقت من الأوقات النظرات إلى صدرى أو ساقى، ولكن ألم يكن زوجي مهذبا وراقيا فى مسلكه أيضا؟ ألم يكن رقيقا فى تعامله معى بالقياس إلى تعامل الرجال مع زوجاتهم؟ تذكرت ذلك بسرعة، وأنا أشكر مديرى على اهتمامه بى، وأعتذر عن ارتباطى به فى علاقة خاصة، وفى نهاية الأسبوع الذى جرى فيه ذلك طلبت نقلى إلى إدارة أخرى بالشركة؛ فتفهم أسبابى وأبدى لطفا يليق بشخصيته الطيبة، وتم نقلى دون إبطاء إلى الإدارة المالية بالشركة لأعمل سكرتيرة لمديرها أيضا. كان المدير الجديد من كبار موظفى الإدارة المالية فيما مضى، ثم أصبح بديلا لنظيرة المتوفى، الذى سبقه فى المركز ذاته، لكن رئيسى الجديد اختلف سلوكه عن سلوك الموظف القديم الذى كنت أعرفه من قبل، إذ سرعان ما تقمص شخصية الجالس على أكبر كرسى فى

الإدارة، وأبرز الوجه القبيح لموظف تسيطر عليه عقد تاريخية؛ بسبب بدء حياته الوظيفية من الصفر وصراعه ونضاله المستمر فى سبيل ارتقاء السلم الوظيفى درجة درجة حتى وصوله إلى النهاية. كان يرغب فى تعويض ذاته عن كل ما فاتها من مباهج الحياة التى تخلى عنها فى الماضى لأجل الصعود والارتقاء، والذى كان يبدو لى حييا خجولا، إذا ما التقيته صدفة فى أحد ممرات الشركة فى الزمن الماضى، اتضحت وتكشفت لى يوما بعد آخر مدى وقاحته عند العمل معه فى الإدارة المالية، إذ كان دائم التفرس فى جسدى، كلما ناولته بعض الأوراق أو ناقشته فى أمر من الأمور، ثم لاحظت أنه يطلبنى كثيرا فى مكتبه دونما ضرورة أو حاجة تستدعى ذلك. كنت بالنسبة إليه من الطبقة الكابسة على أنفاس طبقته، تربيت فى مدارس أولاد الذوات، وهو خريج مدارس الحكومة المجانية، ورطانتى الفرنسية

كانت تعادل رطانة أمه بالصعيدية، وسرعان ما اختصر الطريق ذات صباح بينما كنت أضع بين يديه كشوف حوافز الموظفين والعمل الإضافى، وأعلن عن رغبته فى الزواج منى، وأستعداده لقبول كل طلباتى، حتى لو وصل الأمر إلى تطليق زوجته أم عياله. بالمقابل، كنت مستعدة لتطليق شركة المعادن بالكامل، لو لزم الأمر، حتى لا أرى وجهه أبداً، فهو شخص فج لزج، له وجه مستفز إلى أقصى الحدود، بحاجبيه الكثيفتين وعينيه الواسعتين الوقحتين وقاحة تلائم قوادا من قوادى علب الليل أكثر مما تناسب مديرا ماليا. تذكرت وهو يطلب الزواج منى كيف كان يحاول لمسى دونما سبب مقبول أثناء حديثه معى، كيف كان يميل على وأنا جالسة إلى مكتبى، ليملى على خطابا بخصوص العمل لأطبعه بالآلة الكاتبة. اعتذرت له بسرعة عن الزواج متأففة، دونما إبداء أى سبب من الأسباب، ثم طلبت إجازة طويلة عدت بعدها

إلى الشركة لأجد مشكلتى قد حلت حلا سينمائياً؛ إذ جرى إيقاف مديرى السخيف عن العمل للتحقيق معه بسبب مخالفاته المالية فى الإدارة.

تقدم كثيرون للزواج من ست الحسن والجمال وربة الصون والعفاف التى هى أنا، لكن لا رجل، بل لا أحد استطاع اقناعى بالزواج مرة أخرى. كنت فى الحقيقة أشبع غرورى كلما جرت محاولة من هذه المحاولات دون شك، إذ أجدنى كلما مر الوقت مازلت مرغوبة مقبولة من الجنس الآخر على رغم يقينى أننى لست من الجميلات، بل لا أتجاوز تقييم مقبولة الشكل، لكن تكرار تجربة العلاقة مع رجل آخر كانت بمثابة المستحيل بالنسبة إلى، للحقيقية كدت أميل ذات مرة إلى زميل لى فى الشركة، اعتقل فى هوجة من الاعتقالات التى تحدث فى البلاد بين الحين والحين، وقضى فى المعتقل حوالى خمس سنوات، وعندما استأنف

العمل مرة أخرى فى قسم العلاقات العامة، حيث كنت أعمل آنذاك، شعرت تجاهه بتعاطف شديد غذاه سلوكه الجاد معى ومع كل الموظفات الأخريات، وشيئا فشيئا بدأت تنشأ بيننا علاقة صداقة حميمة رحت خلالها أكون له جمعيات فلوس لأساعده على مواجهة حياته المالية الصعبة، فأجمع مبالغ صغيرة محدودة من رواتب العاملين والعاملات فى الشركة عند أول كل شهر كما جرت العادة، وعندما يتجمع المبلغ ويكتمل أعطيها لأحد المساهمين وفقا لأولويات الضرورة والحاجة، وعادة ما كنت أعطيها لزميلى هذا فى البداية؛ فتتحقق له سيولة نقدية معقولة تتيح له شراء بعض الأثاث والأدوات المنزلية اللازمة. أما من ناحيته فطالما شجعنى على القراءة، ومدنى بكتب وروايات جميلة أقتل بها ساعات ليلى الممتد، بعد عودتى إلى البيت والفراغ من شؤونه والاهتمام بصالح، وبسبب هذا التشجيع والاهتمام، عرفت

شخصيات لا أنساها أبدا، كأننا كارينا، ومدام بوفارى، ثم بدأ يعطينى كتبا عن تاريخ مصر، تختلف كثيرا عن كتب التاريخ التى تعلمت منها فى المدرسة، وأعطانى كتابا عن العائلة والأسرة قال إنه لعالم شيوعى إنجليزى كبير ولابد أن أقرأه، والحقيقة أننى حاولت قراءته، لكننى لم أستطع استيعابه ومواصلته حتى النهاية.

كنت مبهورة بزميلى تماما، فهو مختلف عن كل الرجال الآخرين حولى، مختلف فى مسلكه وأفكاره وآرائه، وقادر على تحليل كل ما يدور من أحداث داخل الشركة وفى المجتمع بطريقة مختلفة تماماً عما يراه الناس، فكان أن توطدت علاقتنا ورحت أزوره فى بيته، وأجلس مع أخته المطلقة وأولادها لنتاول العشاء جميعا فى جو حميمى جميل، لاحظت أن أخته تعامله بنوع من التبجيل، ولا تتوانى عن خدمته هى وأولادها، وفى أوقات كثيرة كانت تتركنا بمفردنا

فى حجرة المعيشة بناء على طلبه، وتمضى بشئونها وشؤون بيتها بعد أن تعد لنا الشاى أو الطعام، فندخن معا ونتحدث عن مشكلات العمل بشركة المعادن، ومتاعبى مع صالح عندما لا يستذكر دروسه جيداً، أو خلافاتى مع عمه، الذى لا يريد إعطائى وإياه نصيبنا من ميراث أخيه، ثم أخذ زميلى يصارحنى بحبه وعواطفه، ورغبته فى الارتباط بى، فلم أوقفه وتركته يعبر عن مشاعره تجاهى وأنا أقول لنفسى: فلتعط روحك فرصة أخرى يا بنت، ولتجربى العلاقة مع الرجل الآخر، الرجل المختلف الذى لا يشبه أيا من الرجال حولك. غير أن ذلك لم يكن إلا صوت عقلى الحائر، لم يكن صوت قلبى أبداً، ولا رغبتى الأصيلة فى عدم معاودة الارتباط برجل.

ذات يوم جاءنى الصديق، الزميل، مشروع الحبيب منهاراً: إذ اكتشف أن أخته على علاقة بجار لهم فى الشارع،

وإنها تريد الزواج منه بدا لى غاضبا عصبياً إلى درجة أصابتنى بالدهشة والصدمة، إذ عرفته هادئا رزينا صبورا، يحكم العقل فى أصغر الأمور قبل أكبرها، ويصعب استفزازه أو استثارته، ووصلت صدمتى منتهاها عندما علمت أنه ضربها ومنعها منعا باتاً من مغادرة البيت إلا بإذنه. رحت أتصور وهو يضرب أم الأولاد الثلاثة التى أعرفها، المرأة الوديعة ذات الطرحة والجلباب التى طالما أعدت لنا الطعام وقدمت الشاى والقهوة وهى تقول لى بأدب وود: "تفضلى يا أستاذة"، ثم تنسحب من الغرفة لتتركنا وشأننا نتحدث ونتحاور بعد أن تغلق الباب علينا لئلا يزعجنا أولادها بشغبهم وضجيجهم الطفولى، سألته عن تسميته للذى بيننا، ولماذا يبيحه لنفسه ولى ولا يبيحه لأخته، قدم إجابات كثيرة من نوع: نحن مختلفان عنها فهى ليست متعلمة، ثم إنها مطلقة وأم، لابد أن الرجل يحاول التغرير بها. ثم أضاف:

إنهما من عائلة فلاحية أخلاقها لا تقبل أوضاعاً من هذا النوع.. ثم..

وجدتنى أنسحب مصدومة من هذه العلاقة التى سرعان ما ندمت على محاولتى الدخول فيها، قارنتها بزواجى الذى مضى، زواجى الفاشل بسبب الكذب لا بسبب الموت، واكتشفت كم كنت غبية إذ عاودت الرهان على رجل مرة أخرى.

وضعت رأسى على الوسادة لأقيل بعد الغداء قليلاُ، بينما الأفكار تجول بداخلى، وعينى ترتاح لمرأى تدرجات الأزرق وتلاوينه على الستائر وسجاد الأرضية وأغطية الفراش. فكرت فى جولة الساعة الخامسة فى المدينة التى سأقوم بها مع زوجة الدكتور إبراهيم، لنرى معالم البلد ونتسوق بعض الأشياء. لا شئ فى رأسى غير الماضى القديم، شريط الذكريات المستعاد، كلما وضعت رأسى على الوسادة لأنام،

والممتزج بهواجسى وهمومى وأحلامى عن صالح ومستقبله ودراساته وأبحاثه عن أورام الحلق التى سيشارك بها فى المؤتمر حمدت ا لأننى حسمت ترددى وجئت مع صالح، فأنا لم أسافر خارج حدود الوطن من قبل، كنت خائفة وأحسب حساب تكاليف السفر الباهظة، لكن السفر فى الحقيقة جميل، ويستحق أن يبذل الإنسان المال لأجله، وقد تصورت أنى سأكون عبئا على صالح أثناء هذه الرحلة، ولكن الأمور تبدو ميسرة فى هذا البلد والحمد ، ويمكننى الاعتماد على نفسى فى الخروج والتجول، وأظن أننى سأقوم بذلك بمفردى بعد، دون الحاجة إلى اصطحاب زوجة الدكتور إبراهيم.

قبل استسلامى للنعاس وهيمنة النوم تلاحقت فى مخيلتى الصور: مطار القاهرة، الطائرة ومضيفتها ذات الأسنان المفلجة وهى تبتسم، شوارع المدينة البادية من نافذة السيارة، مبنى الفندق بطرازه العربى الجميل، الحديقه ونافورة الماء

عند مدخلها، شجرتا الكينا والطيور عليها "البانسية"، "حنك السبع"، قميص نيللى "الشيفون" وشعرها الأحمر، وجه نادل المطعم، يا إلهى! شريط الصور يتوقف عند ذلك الوجه؛ جميل، هادئ، شاب. أطبع قبلة حارة عليه، مستحيل! ما هذا يا بنت؟!. أتقلب على جانبى فى الفراش محتجة، لكن ها أنا أعود لأطبع قبلة جديدة أحر من الأولى على الخد الآخر، بينما عيناى مغمضتان، أنهض من فراشى بعصبية، أفتح النافذة قليلا متذرعة بضرورة تجديد هواء الغرفة، ثم أعود إلى السرير لأكتشف كذبى بمجرد الاستلقاء عليه من جديد، فأنهض وأغلق النافذة إذ تلسعنى نسمة باردة، أحاول النوم لكن وجهه يأتى. وجهه لا يغيب، بالتأكيد نمت بعد ذلك، لأنى أفقت بعد حوالى نصف الساعة، وسرعان ما تذكرت ما جاءنى فى المنام من صور: "أجرى وأنا أحمل بيدى الأوراق المفاجأة التى عثرت عليها بدرج مكتب زوجى بعد وفاته،

والتى كان يخفيها عنى، أحاول تمزيقها بسرعة، لكنه يطاردنى داخل ممر ضيق طويل بلا نهاية وأنا أجرى مرتعبه منه، تتلاحق أنفاسى يأخذنى اللهاث وسرعان ما يهدنى الإنهاك وأصبح على حافة الانهيار، يدركنى ويخطف الأوراق منى، ويضربنى بيديه، ثم يركلنى بقدمه لأسقط على الأرض صارخة مبتئسة طالبة الموت والفناء، عندئذ يشتمنى ويتهمنى بالسقوط وينعتنى بأحط الألفاظ، لكنى أنهض، أقاوم، أهاجمه بسرعة منتزعة الأوراق منه مرة أخرى وأسارع بتمزيقها، فيأخذ فى القهقهة ساخراً، ويعلن أن لديه غيرها، مثلها تماماً، انقبضت روحى وأنا أتذكر ملامح وجه زوجى، الصرامة تقبع فى عينيه، شفتيه الرفيعتين، وأنفه المقوس الحاد، ثم بشرته المصفرة ونظارته السميكة، لم أحب ملامحه أبداً، على رغم أن كثيرا من النساء كن يعجبن به ويعتبرننى من المحظوظات إذ تزوجت برجل مثله: صيدلى، ميسور،

وسيم من عائلة معروفة فى إحدى محافظات الدلتا، أما أنا فلست إلا ابنه موظف محدود الدخل، لا أحمل سوى شهادة الثانوية الفرنسية.

شعرت بضيق فى صدرى وتسارع فى أنفاسى، مثلما يحدث لى عادة بعد الإفاقة من هذا الكابوس الكئيب، عاودتنى مجددا فكرة الذهاب إلى طبيب نفسى ليعالجنى، وهذا ما كانت أفكر به بعد كل مرة يداهمنى فيها هذا الكابوس الذى يتكرر دائما بالأحداث نفسها وبالنهاية ذاتها، لكنى متيقنة أننى لن أذهب إلى أى طبيب نفسى، ربما لأنى كسولة؛ أو لكونى أخاف البوح بما فى داخلى أمام أى كائن كان، وربما لأنى لا أثق فى الأطباء النفسانيين وأظن أن معظمهم مرضى أحوج إلى العلاج من أولئك المترددين عليهم. حاولت تلهية نفسى بأغنية لتزول كآبتى وأبتهج قليلاً، لكن الذاكرة لم تسعفنى بأغنية مناسبة فزفرت بشدة وأزحت الغطاء بعيداً بعد أن

قررت دخول الحمام، للهرب من همى وضيقى والانتعاش بالماء الدافئ.

رحت أخلع ملابسى حتى تعريت تماماً، وعندما هممت بفتح الماء فوجئت بصورتى منطبعة بالكامل على المرآة الكبيرة المثبته إلى جانب حوض الاستحمام، أخذت للحظة، فقد كانت المرة الأولى التى أرى فيها نفسى عارية منذ زمن بعيد: جسدى ممتلئ قليلاً، لكن نهدى صغيران كنهدى مراهقة، عانتى ذات شعر خفيف فاتح، يعلوها بطنى المترهل قليلاً، والذى يحمل ندبه متخلفة عن العملية القيصرية التى أجريت لى وقت ولادتى لصالح، ثم كتفاى اللذان كان زوجى يرى أنهما أجمل ما فى جسدى، وشعرى يلامسهما بالكاد.

شعرت بلذة غريبة لمرأى هذا الجسد كاملاً، واعترتنى نشوة غامضة فأدرت رأسى محاولة النظر إلى مؤخرتى وفخذى المشدودين وتأملهم فى المرآه، طاولت عنقى لأعلى

وحاصرت بيدى خصرى فوجدته ضيقا واضح الحدود، تنهدت برضا، ومررت بأناملى على وجهى مرتاحة لملمس جلدى، فلما اصطدمت نظراتى بنظراتى المطلة من المرآة اعترانى خجل، وتعوذت با من الشيطان الرجيم، واندفعت بكاملى تحت رشاش الماء بعد أن فتحت الصنبور بسرعة.

لكن يا إلهى، ها هى ذى صورته مرة أخرى تعاودنى وتملأ عينى المغمضتين تفاديا لحرقة الصابون، كان يضغط بأسنانه على شفته السفلى قليلاً وزوجة الدكتور إبراهيم تسأله إحضار بعض الليمون لتضيفه إلى طبق حسائها.

بعد خروجى من الحمام، ارتديت ثوبى البنفسجى الفاتح المصنوع من "الجرسيه" القطن، عقصت شعرى إلى الخلف كما أفعل دائما، وكحلت عينى بالقلم الأسود، وطليت شفتى بلون وردى هادئ لا يلحظ على الأغلب. ارتحت لمنظرى

فى المرآة؛ إذ بدا وجهى لا يخلو من حيوية ونضارة، وداخلنى شعور بالرضا عن نفسى.

كنت قد بدأت أستعيد روحى وأحس البهجة والانتعاش بعد الحمام اللذيذ، تذكرت آخر أغنية علقت بذهنى عند مغادرة أرض الوطن فى الصباح، رحت أترنم بها واستعيد صوت المطربة "أحلام" التى تغنيها فحننت إلى مصر وتنهدت وأنا أتعطر وأضع قدمى فى حذاء مريح بكعب منخفض، ثم نزلت إلى صالة الاستقبال فى الفندق حيث تواعدت مع نيللى على اللقاء، فوجدتها تنتظرنى وبيديها شغل "تريكو" وما أن رأتنى حتى هتفت:

ياه، شكلك فى منتهى الجمال، واضح أنك نمت نومة طويلة.

ابتسمت لملاحظتها المجاملة وقلت:

فعلا نعست وعسلت بعض الشئ، لكن الحمام نشطنى جداً.

لمت التريكو الذى بيديها وقالت:

قبل السفر بدأت أشتغل بلوزة سامية، قلت أخلص منها فى الرحلة وأسلى روحى.

كان الخيط بلون بصلى فاتح من الحرير " الميرسيرزيه"، وكان ما نسجته نيللى بالإبرة يشكل زخارف على هيئة رئيش الطاووس، تأملته بإعجاب وقلت لها:

رائع.. أنت ممتازة فعلا، أنا لا أصبر على شغل سطر واحد من التريكو، أشغال الخياطة والإبرة، تخلى روحى فى مناخيرى.

ابتسمت نيللى فى زهو وهى تتأمل شغلها وتتحسسه بيديها وقالت:

الأشغال محتاجة إلى الصبر والبال الطويل، يظهر أن خلقك ضيق. ثم أعلنت أننا سنذهب إلى وسط المدينة سيرا على الأقدام، وفقا لنصيحة موظف الاستقبال فى الفندق، الذى أخبرها أن وسط المدينة لا يبعد عن محل إقامتنا إلا مسافة يسيرة لا تحتاج إلى أكثر من عدة دقائق. وافقت بحماس على المشى لشعورى بالحاجة إلى تنشيط جسدى وتحريك دمى، وشم قليل من الهواء المنعش الرطيب.

تجولنا حوالى ساعتين فى المدينة رائعة الأصالة، استوقفنى منظر الأبنية والبيوت بطابعها المعمارى العربى القديم، والحدائق المنسقة بخضرتها العازفة على كل درجات الأخضر تصافح البصر أينما تولى، توقفت نيللى مرات أمام محلات الملابس الأنيقة والخياطة الراقية وكانت تردد بين الفينة والأخرى:

وا كأن الإنسان فى روما أو باريس، أذواق ممتازة

وتشطيب من الدرجة الأولى، يا سلام!

تعبنا من اللف والدوران فأقنعنا نفسينا بالجلوس فى مقهى للاستراحة، ودخلنا أول محل قابلناه، وطلبنا شيكولاته مثلجة.

قالت نيللى بعد أن سحبت السائل الحلو بالمصاصة المضمومة بشفتيها:

زمان عندنا فى مصر كانت أحلى شيكولاته صاقعة يشربها الواحد فى محل البن البرازيلى فى شارع فؤاد، وكانت الفرجة على الزبائن متعة فى حد ذاتها، وكان الانسان يقدر يشوف ناس لابسة أحدث موضات باريس ولندن وفى منتهى الأناقة، لكن بعد التأميم وتحويل المحل لقطاع عام كل شئ فسد وتغير، والشيكولاتة اختفت طبعا، حتى البن أصبح طعمه منيل بنيلة وكأنه تراب وسخ، لأنه مغشوش ومخلوط بالقمح والفول المحمص، شئ يقرف.

لم يكن هذا الكلام هو التعليق الأول لنيللى على التأميم والفترة الناصرية، فمنذ بداية جولتنا معا فى شوارع المدينة، وتعليقاتها لم تنقطع عن زمن عبد الناصر، وحتى على عبد الناصر نفسه، وكأن بينها وبينه عداوة شخصية، حتى إننى اضطررت إلى أن أسألها مباشرة إن كانت الثورة قد أممت ممتلكاتها أو ممتلكات أسرتها، فنفت بشدة وقالت إنها لا تكره الثورة لسبب من هذا النوع، ولكنها تكره العسكر وترى أنهم مجموعة من الغوغاء الجهلة الذين يجب ألا يعهد إليهم بالحكم، ثم أردفت موضحة رأيها، بأن سر روعة البلد الذى نزوره الآن هو أن الحكم فيه نجا من سلطة العسكر، وأن الطبقات القديمة فى بلادنا كانت محترمة جدا، لأنها تفهم فى الذوق والأصول ومتمدنة فعلا.

قلت لها إنى أحب عبد الناصر ولم أفكر أبدا فى موضوع العسكر، وإن الثورة لم تفدنى ولم تضرنى، فبها أو

بدونها كنت سأدخل ابنى الجامعة وأصرف عليه من فلوس أبيه التى تركها له، لكنى بصراحة كنت أشعر دائما بالصدق فى كلام عبد الناصر عندما يخطب، وأحس أن الجمل طالعة من قلبه، كما أن بلادنا كانت أيامه حلوة وفيها حياة والناس فرحانة ومتفائلة وعندها أمل فى الدنيا وفى تحسين أحوالها، وكل الناس مرتبطة ببعضها، وقلت لها أيضا إننى لا أحب السياسة ولا أفهم فيها، لكنى أشعر أن حياتنا الآن بدون طعم، والناس تعيش كما الاغراب على أرضها.

أبداً، أبداً. ردت نيللى تعارضنى، وأردفت: بالعكس الناس مبسوطة وأحوالها منتعشة جدا، وعمالة تلم فلوس من هنا وهناك، كل أسرة عندها واحد أوأكثر سافر لبلاد النفط، وكوم الفلوس ورجع وحسن أحواله وأحوال أهله، بصى للعمارات الجديدة فى البلد، ناطحات سحاب فى كل ناحية وكأننا فى أمريكا. تصورى كنت مع إبراهيم فى المانيا من

سنة ولاحظت أن عدد السيارات المرسيدس فى الشوارع هناك أقل جدا من عددها عندنا فى مصر وكنت مستغربة جدا.. لا... لا البلد أحواله ممتازة فى السنين الأخيرة، وتحسن علاقتنا مع أمريكا رفع رأسنا فى العالم وجعل اسم بلدنا على كل لسان، طيب هل تخيلت فى يوم من الأيام أن يكون عندنا شغالات آسيويات؟ تصورى بمائة دولار، لا أكثر ولا أقل يقدر الإنسان ان يشغل شغالة آسيوية، مديرة منزل بالمعنى الحقيقى للكلمة، بدلا من قرف الفلاحين وجهلهم وقملهم وأمراضهم.

تذكرت "مال" التى ماتت منذ سنوات قريبة، وترحمت عليها، كانت حنونة طيبة حكيمة ربت معى صالحا ورعته وكأنها أم حقيقة، قرأت الفاتحة على روحها فى سرى واكتفيت بالرد على نيللى بقولى: "يا سلام" ولم أشجعها على متابعة الكلام، ثم اقترحت عليها الذهاب إلى "البنك" لتغيير

العملة الأجنبية التى معنا بعملة محلية، لكنها نصحتنى بالتريث وعدم الذهاب؛ لأن من الواضح أن هذا البلد سياحى جدا، ومؤكد أن هناك سوقا سوداء، يمكن تبديل العملات منها بسعر أفضل من سعر البنك.

شعرت بضيق إذ سأضطر إلى أن أكون بصحبة هذه المرأة طيلة الوقت، وكنت قد بدأت أتوتر منها، فقلت لنفسى: فى الأيام المقبلة سأتذرع بأية حجج وأذهب إلى المدينة بمفردى، فأنا لا أحتمل هذا النوع من النساء، وداخلتنى رغبة مفاجئة فى العودة إلى الفندق لتناول عشائى والذهاب بعد ذلك للنوم، فأنا عادة لا أحب السهر وأنام مبكرة كما أننى أفضل الصحو عند الصباح الباكر.

عندما عدنا إلى الفندق، كانت الساعة تقترب من التاسعة، فاقترحت نيللى أن نتعشى أولا ثم نذهب إلى النوم، فوفرت على الكلام فى ذلك، ووافقت على ما اقترحته فورا.

اخترت الطاولة ذاتها التى كنا نجلس إليها أثناء الغداء، تركت حقيبتى معلقة على طرف مسند الكرسى، توجهت إلى الحمام فغسلت يدى ومشطت شعرى، وعندما عدت لأجلس بادرتنى نيللى بالسؤال:

عاوزة أبيض أو أحمر؟

نظرت إليها وانتبهت إلى وقوف النادل إلى جانبها، ارتبكت وقلت بدهشة:

لا أعرف... لست ذواقة للأنبذة عموما.

ضممت شفتى مفكرة، ونظرت إلى الوجه الجميل الواقف ينتظر فأردفت بسرعة:

أظن نشرب حسب نوع الأكل... هه؟

سألته نيللى عن نوع الأكل فأجابها بصوت خفيض، ردت بسرعة:

طيب.. أحمر "دراى" لكن اللحم كامل النضج، أرجوك.

أؤما بالرأس الجميل موافقا، وأشار إلى متسائلا عما إذا كان لى طلب خاص، وكنت أنظر إليه فى هذه اللحظة، تلاقت نظراتنا لأول مرة فأجبت وأنا ابتسم:

لا شئ... شكرا.

عاد بعد قليل بالخمر والعشاء. بدأ رأسى يدور وصوت نيللى يصل إلى أذنى، وكأنه نقيق ضفدع كبير مختلط بأصوات رواد المطعم الآخذين فى التزايد مع مرور الوقت.

عاد صالح والدكتور إبراهيم فانضما إلينا وراح صالح يقص علينا ما دار فى المؤتمر من أحداث، وكيف كان بحث الدكتور إبراهيم مفاجأة للجميع من حيث الجدة وعمق المستوى العلمى، خصوصا بالنسبة إلى ما توصل إليه من نتائج، كنت تقريبا لا أسمع شيئاً، لكنى أتابع الكلام بنظراتى، وأرسلها بين الفينة والأخرى تلاحق الوجه الجميل، الرائح، الآتى، بالأكواب والأطباق، وكأن قوة خفية تجعلنى لا

أستطيع أن أحيد بنظراتى عنه أو أنسى وجوده فى المكان.

حكت نيللى لرجلينا عن جولتنا فى وسط المدينة والسوق، وقالت إنه من الواضح أن البوليس متحكم فى أمن البلاد بطريقة ممتازة؛ لأن الانضباط فى الشارع مستواه مرتفع جدا، والناس غاية فى الأدب والذوق، ثم تحسرت على حال بلادنا: "الفوضى وقلة الأدب، الوساخة وانعدام النظام، السمكرية والميكانيكية على طول الأرصفة" كانت تمضغ وتتكلم وزوجها يتابع باهتمام الفتاة الأجنبية ذات الشعر البنفسجى، التى كان صديقها يقبلها بين الحين والحين، كانا جالسين إلى الطاولة المجاورة لنا، وجدته يسألنى فجأة وهو يتابع مشهد المتحابين مبتسما ويقول:

هل فكرت أن تفرحى بصالح يا مدام؟

منذ شهور حدثنى صالح عن ابنه أستاذ له فى القسم، وقال إنها ظريفة وخريجة آداب قسم صحافة، وغالبا سيجرى

تعيينها مذيعة بالتليفزيون، لأن ابن مدير قطاع الإنتاج طالب فى القسم عند الأستاذ والدها، وقد وعد أبوه بتعيين الفتاة إذا نجح ابنه فى النهائى بامتياز وجرى تعيينه معيداً.

خمنت بسرعة أن البنت إياها من المحتمل أن تكون بنت الدكتور إبراهيم فقلت بسرعة:

وا يوم المنى يا دكتور لما عينى تشوف صالح وهو عريس فى الزفة. هو يأمر وأنا تحت أمره بدون قيد أو شرط.

كنت كاذبة بالطبع فى كلامى الأخير، فأنا أريد لصالح أجمل بنت فى الدنيا، أرق بنت فى الدنيا، أعظم فتاة فى الدنيا، لكنى لم أكن مستريحة بعد أن رأيت نيللى وتعرفت عليها، وتمنيت ألا تكون للفتاة شخصية كشخصية أمها: متكبرة، مفتعلة، دائمة الفتوى، تمنيت أن تكون بسيطة، بشوشة، كوالدها الدكتور إبراهيم.

بعد انتهاء العشاء وصعودنا للنوم، سألت صالحاً وأنا مستلقية على سريرى المقابل لسريره عن موضوع بنت الدكتور، فرد بالإيجاب وقال إننى أفهم المسائل وهى طائرة، ثم أضاف إن الدكتور لمح إلى ضرورة إتخاذ خطوة عملية، لكن المشكلة أنه لم ير الفتاة إلا مرات قليلة سريعة، ولا يستطيع أن يحدد بالقطع إن كانت ملائمة أم لا، لكن الدكتور من الناحية العملية سنده فى القسم بالجامعة وهو يفكر فى الأمر جديا.

يوم مؤنس

(١)

فتحت عينيها ونظرت إلى ساعة معصمها على ضوء الفجر الشحيح المتسلل إلى الغرفة من النافذة المطلة على الحديقة، كانت العقارب تشير إلى السادسة. نهضت من السرير بكسل. ثم أزاحت الستارة الرقيقة المسدلة على النافذة، تطلعت إلى الحديقة من خلال الزجاج الشفيف. الأشجار مبللة بقطرات الندى، والطيور عليها تصبح على الصباح الوليد بمعزوفات الزقزقة والشقشقة وأغاريد شتى، لكن تغريد البلبل كان يطغى عليها جميعا بعذوبته وسحره، وكأنه اللحن الأساسى لمعزوفة باهرة وهو يتماوج بنغمات يصعب وصفها أو رسمها بالكلمات، هل هى: كرو... كرو، أو ترو ترو؟! لا ليس هذا ولا ذاك، حاولت البحث بعينيها عن مكان ذلك المطرب الصغير، كانت ترغب فى رؤيته

وهو يرسل شدوه المتفرد البديع، لكنها لم تر غير العصافير المعتادة على رؤيتها فى وطنها، إضافة إلى نوع آخر من الطيور السوداء الصغيرة ذات مناقير حمراء معقوفة. حاولت تجسيد صورة البلبل فى مخيلتها، لكنها فشلت، حاولت تخيله مرة واثنين وثلاثا هل هو طائر ملون بريش زاه جميل.. أم أنه طائر أبيض خالص بمنقار لا زوردى صاف؟!.. لعله طائر بألوان قوس قزح البهيجة، لكن المخيلة لا تسعفها ولا تواتيها بصورة بلبل حقيقى رأته فى حياته ترتسم أوصافه فى ذاكرتها. لم تعرف البلبل إلا من خلال صوته الساحر الآخاذ عندما كان يمر آخر الليل على حديقة بيت جدتها، أو يحط قرب الفجر على شجرة من الأشجار ويبدأ عزف أناشيده الأبدية، فتفتح الجدة عينيها، وتسمعها هى وقد كانت تنام إلى جوارها دائما، وهى تقول: البلبل، سبحان من أعطاه، ثم تتنهد وتعاود نومها ثانية، بينما تظل الطفلة الصغيرة مأخوذة

بلحن البلبل حتى يغالبها النعاس مرة أخرى، فتحلم بالبلبل طائرا ضخما فخما، بريش ملون بكل ألوان الدنيا التى عرفتها عيناها، فتظل تتأمله وتناديه وهو يصعد إلى السماء رويدا رويدا ويختفى بينما هى ترجوه أن يأخذها معه بعيداً بعيداً ويطير بها إلى حيث هو ذاهب، إلى عالمه الجميل.

فتشت بعينيها أكثر، علها تجد البلبل الذى طالما تمنت رؤيته، تفحصت بنظراتها شجرتى الكينا الباديتين أمامها من خلف الزجاج، لكن لا فائدة، كل الطيور تتشابه لا اختلاف يذكر بينها وهى واقفة على الأغصان، طيور سوداء لها مناقير حمراء، وطيور باهتة الألوان، كالتى تراها فى كل حين ببلدها، ثم فجأة ارتسمت فى مخيلتها صورة وجهه كاملة، الشعر الفاحم المسترسل، والعينين الواسعتين المبحرتين فى غسق الليل، ثم الأنف الأشم والخد الأسيل. ضبطت نفسها متلبسة مرة أخرى بتأمل ذلك الوجه:

اشتهاء؟!.. هل تشتهى هذا الفتى؟! لا المسألة ليست كذلك أبدا، إعجاب؟!... افتتان! ما معنى كلمات من هذا النوع بالنسبة إليها؟!. لقد ماتت ودفنت معانيها لديها منذ زمن بعيد، فالرجال باتوا بالنسبة إليها كائنات ليس إلا. نوع من الكائنات كالأحصنة، أو الأسود، أو الأسماك، ولا توجد لديها أية مشاعر خاصة تجاهها؛ حتى محاولات الابتزاز والتحرش الجنسى التى كثيرا ما تتعرض لها، مثلها مثل كل النساء الأخريات، لم تعد تؤثر فيها أبدا، لا تستفزها أو تثير سخطها على الإطلاق: هرش ما بين الفخذين بدون مناسبة، أو فتح أزرار القمصان حتى تبين الصدور المشعرة، التطلع إلى صدرها وساقها، ثم التلميحات والترميز الكلامى أثناء العمل، كل ذلك لا يثير فيها أية مشاعر إلا من ذلك النوع المتولد لديها عند التطلع إلى حائط.

"إذن ما هذا الشعور الغريب الجديد، الذى يعتريك كلما

رأيت أو تذكرت صورة هذا الشاب الجميل؟ لماذا تعاودك صورته دائماً. بمناسبة وبدون مناسبة؟. هل هو السفر؟. الخروج من الوطن؟. حالة انعدام الوزن التى أصبحت فيها منذ مجيئك إلى هذا المكان، الذى لا معنى لوجودك فيه غير أنك أم ترافق ابنها المترفق بها والراغب فى إدخال البهجة إلى قلبها باصطحابها فى هذه الرحلة الطريفة؟"

تشعر أنها غير طبيعية، غير متوازنه، فى حالة قلق غريبة لم تمر بها من قبل. ابتعدت عن النافذة، وتأملت ولدها النائم. لا تعبير على وجهه. لن يفيق قبل الثامنة كعادته. حارت ماذا ستفعل بنفسها خلال الساعتين القادمتين، حتى ميعاد استيقاظه؟ لو كانت فى بيتها لعملت ألف شغلة وشغلة فى هذا الوقت. فغسلت مواعين وصحون عشاء الليلة الفائتة، ولفت شعرها بالبكرات، وأخرجت صندوق الزبالة حتى لا تنسى وتغادر البيت إلى عملها فيدق الزبال ولا يجدها. ربما

سلقت لحما بسرعة ليكون جاهزا لوجبة الغذاء عند عودتها وصالح إلى البيت، وربما غسلت حوض الوجه ونظفته قبل حمامها الصباحى المعتاد، وربما وربما، فقاموس مهامها المنزلية لا ينتهى، ووقت الصباح لديها مسروق من الزمان فهو ممسوس من العفاريت، يطير ويختفى مثلما تطير هذه العفاريت وتختفى دون أن يراها أحد.

اقترحت على نفسها حلا مناسبا لقتل الوقت حتى ساعة استفاقة صالح من النوم، خلعت قميص نومها القطنى الخفيف بسرعة، أدخلت نفسها فى قميص وسروال كيفما اتفق، ثم مشطت شعرها ولمته بحلقه مطاطية، وغادرت الحجرة بهدوء وانتقلت إلى السلم مجتازة بعده الممشى المفضى إلى الحديقة، ولما بدأت تخطو إليها إذ: كرو.. كرو بلبلية رائعة أتتها من شجرة الكينا، ثم صاحب الوجه الجميل و: صباح الخير

صباح النور

ردت وهى تتطلع إليه مذهولة، تسمرت لحظات قبالته، ثم مضى كل منهما فى طريقه. خرجت إلى الحديقة دارت دورة أو دورتين فيها، لم تدر، كانت مضطربة أجل مضطربة تشعر بخوف، بضيق، بنشوة، انقلاب حالها من أوله إلى آخره.

ما الصدفة؟ ساءلت نفسها وحاولت الإجابة: "الحادث الذى يقع دون أن نخطط لحدوثه ودون أن نتوقعه". لكن هل ما حدث منذ قليل صدفة، أصدفة أن يفكر المرء فى شخص ثم يلتقيه بعد دقائق معدودات من التفكير فيه؟.

ساءلت نفسها مرة أخرى، وراوغتها بالإجابة :" طبعا يا بنت صدفة؟. ثم إن الصدفة الأساسية هى أنك فكرت فيه قبل أن تلتقيه أصلا. إنها مجرد صدفة لا غير هدأت قليلاً، وطمأنت نفسها بهذا التحليل الأخير، وتركت الفندق وهى

تشعر بروعة الطقس وبرودة الصباح اللذيذة تتآلفان مع فيض الخضرة السارحة فى الشوارع وجناين البيوت وشرفاتها، وها هى: كرو كرو تأتيها بين الفينة والأخرى، سبحان ا ّ! تبارك الخلاق! قالت لروحها، وصفاء غريب يتسال إليها، وصلح مع نفسها والحياة يداخلها بشكل لم تعرفه منذ سنوات طويلة ممتدة من عمرها. اعتراها إحساس من يبصر لأول مرة، أو يولد من جديد، أما رأسها فلا فكرة واحدة تدور فيه غير: "ا ! سبحان خالق الكون والجمال!" لا مشاكلها فى شركة المعادن على العلاوة الدورية، ولا غيظها من جارها الجديد الذى يفتح الراديو طوال الليل والنهار ولا ورشة إصلاح السيارات فى الشارع، المستمر ضجيجها معظم ساعات اليوم، كل ذلك لا يمكن أن يطفو الآن على سطح أفكارها "يا سلام"! قالت لروحها مرة اخرى وهى تدور دورة جديدة حول الفندق وتفتح صدرها لهواء الصباح الصافى

المنعش. كان هواء لم تستنشق مثله منذ رحيلها مع أهلها من الريف إلى المدينة قبل حوالى ستة وثلاثين عاما، حيث استقر والدها موظفا فى أحد دواوين الحكومة.

بدأت تشعر بتعب فى قدميها من كثرة المشى؛ فاستدارت وقررت العودة إلى الفندق لأخذ حمامها الصباحى، والاستعداد ليوم جديد من أيام الرحلة.

عندما فتحت باب الحجرة وجدت صالحاً واقفا يعقد ربطة عنقه أمام المرآة، فلما رآها استدار وعانقها بعد أن حياها تحية الصباح وقال:

واضح أنك مبسوطة يا ماما.. وا شكلك صغر حوالى خمس سنين، وزدت حلاوة، واضح أنه من الضرورى الانتباه لك؛ لأن المعجبين بك عددهم فى الزيادة طبعا من هنا وطالع.

شعرت بخجل حقيقى نادراً ما يحدث لها عندما يقول

صالح مثل هذا الكلام الذى يكرره عليها بين الحين والحين، اعتراها شعور خفى بالذنب، لكنها تبسمت وقالت:

كل بعقلى حلاوة يا حبيبى.. الحلاوة والشباب والجمال، انتهوا من سنين فاتت.

استنكر الابن قائلا:

يا سلام! أنت عمرك أربع وأربعين سنة، يعنى فى عز شبابك، طيب وا   الدكتور إبراهيم قالى إنه عند أول مرة شافك ظن أنك أختى، وا   لو أنك قلت يا شباب، لحضر إليك عشرة لتختارى منهم واحدا.

ضحكت بسعادة وردت عليه مازحة:

اخرس يا واد، بلا كلام فارغ، رح انتبه لحالك، وخليك فى الجد، بصراحة الفرصة مناسبة لتفاتح الدكتور إبراهيم فى موضوع البنت، لم يبد الابن حماسا لرأى أمه، وقال إنه يفضل أخذ فرصته فى التفكير على رغم أن الزواج بابنة

الدكتور سوف يفتح له الأبواب المغلقة فى القسم بالجامعة، كما أن ذلك سيضعه على عتبات المستقبل الحقيقى، لأن من المتوقع أن يدير الدكتور إبراهيم مستشفى استثمارياً كبيرا، وبالتالى فالعمل معه سيكون مضموناً، لكن هناك أموراً كثيرة يجب التفكير فيها أيضا، فوضع أمه بعد زواجه يقلقه، وهو يخاف تركها تعيش وحيدة فى البيت بمفردها.

زعقت فيه بغضب عند هذا الحد من كلامه وقالت:

اسمع يا صالح، آخر مرة تفكر بالأسلوب السخيف إياه، أظن أننا تناقشنا فى الموضوع ألف مرة، وقلت إنه من الطبيعى أن أعيش وحدى، يا صالح قلت لك إن علاقتنا سوية. أنت ابنى ولكنى لا أملكك، حياتك فى يوم من الأيام ستستقل عن حياتى.

ضمها إليه، قبلها وطمأنها أن علاقتهما جميلة وسوية؛ لأنهما صديقان قبل أن يكونا ابنا وأما، لكنه يريد رد جميلها

وطول صبرها وانتظارها وبقائها كل تلك السنين التى مرت دون زواج لأجله.

حسمت الأمر بجد، وقالت إنه الوحيد الذى يعرف تماماً أنها لم تتزوج لأسباب لا تتعلق به، وإنها لا ترغب فى الرجل إلا كرغبتها فى كائنات من نوع النسور أو النمور أو الحيوانات المتوحشة.

ضحك صالح وحاول تطيب خاطرها قائلاً:

خلاص.. خلاص، بلا مشاكل على الريق، تعالى ننزل لنفطر.

قالت وهى تتثاءب وتتمطى، وكانت تشعر بثقل فى جسمها، وبوهن فى عظامها.

لا.. أنزل أنت وكل لأننى عاوزة أدخل الحمام وأغسل شعرى وألفه. وأخيط كم الفستان المشمشى المفتوق، وبعدما انتهى، أفكر فى الأكل.

طيب... أنا نازل المطعم، وبعد الأكل أروح المؤتمر، ومعنى ذلك أن نتقابل وقت الغداء، وعلى فكرة اعملى أى مشروع مع مدام نيللى، لأن الدكتور وقته ضيق ومنشغل جدا فى المؤتمر.

ردت عليه، بعد أن قال ذلك بعصبية وضيق:

بصراحة، نيللى رغاية جدا، معظم الوقت تفتى فى الكبيرة والصغيرة، ولا تمل الكلام عن نفسها.. مغرورة خالص.

لم يعترض على رأيها ونصحها أن تتعلل بأى عذر كيلا تخرج معها. واقترح عليها الاحتفاظ ببطاقة الفندق من باب الاحتياط، حتى لا تتوه لو قررت الخروج بمفردها، ثم قبلها ونزل إلى المطعم ليتناول إفطاره.

(٢)

دخلت المطعم حوالى الساعة العاشرة إلا ربعا، فوجدته شبه خال، إذ لم يكن فيه أحد غير الفتاة الأجنبية ذات الشعر البنفسجى وصديقها، اللذين كان يهمان بالخروج، رمقانى بنظرة معناها: المطعم على وشك الإغلاق، وأنت تدخلين الآن. اخترت منضدة أستطيع التطلع من موقعها إلى مشهد الحديقة الجميل، كان هو مشغولا وقتها برفع الصحون والأطباق المتخلفة على الطاولات. فتحت حقيبتى وتأكدت من وجود جواز سفرى وحافظة نقودى بها. ثم وضعتها إلى جانبى على المنضدة عندما جاء وسألنى مبتسماً:

صباح الخير.. شاى أم قهوة؟

صباح النور، شاى مع الأكل، وقهوة فى الآخر من فضلك،

قلت ثم تفحصته قليلا بنظراتى، وبعد تردد، استجمعت

شجاعتى وأردفت سائلة إياه عن اسمه.

يوسف.

أجاب بعد أن زم شفتيه ولامسهما بأنامله الرقيقه وهو يتأملنى بدوره، ثم مضى سريعا مواصلا عمله.

جاء بعد فترة حاملا فطورى من الشاى والحليب والزبدة والمربى، ثم عاود رفع الصحون والأكواب وترتيب الطاولات. كان ظهره فى أغلب الأحوال بمواجهتى، أحيانا كنت أرى مشهد وجهه الجانبى عندما يستدير قليلا ليعدل من وضع الكراسى، وجه جميل متباين التعبير وكأن صاحبه يفكر بجديه فى أمر من الأمور، أو يناقش مسألة بينه وبين نفسه. أفكر وأنا أمضغ طعامى: "من يكون يا ترى هذا اليوسف؟! ولماذا يعمل نادلا فى مكان كهذا؟! كم عمره على وجه التقريب؟! مستحيل أن يكون قد بلغ الثلاثين، بل ربما كان عمره أقل من ذلك بكثير. يبدو أنه فى سن أصغر من

سن صالح ابنى. لكن لماذا أشغل نفسى بهذا؟!.. مالى ومال سنه. فلأفكر فيما يجب أن أفعله طوال الساعات القادمة وحتى وقت الغداء. لقد فرحت لأنى نيللى كلمتنى فى الغرفة قبل نزولى إلى المطعم، واعتذرت عن الخروج معى، لأنها ستذهب إلى صالون التجميل فى الفندق لتوضيب شعرها وأظافرها بعد اكتشافها أن المحل ممتاز، وكأنه واحد من صالونات الشانزلزيه الباريسية، ولكنى الآن بعد تحررى من صحبة نيللى، أشعر أنى سأكون وحيدة، ولا أعرف ما الذى سأفعله بنفسى خلال الساعات المقبلة. شعرت بعطش وجفاف فى حلقى، فناديت يوسف وطلبت منه ماء، هز رأسه بالإيجاب وذهب ثم عاد بزجاجة ماء، وبينما هو يصب الماء فى الكأس الموضوع أمامى على الطاولة سألته مستفسرة:

هل عندك فكرة عن متحف قريب من هنا أو عن أى مكان يستحق الزيارة والفرجة عليه؟

نظر إلى متمعنا وهو يضم شفتيه ويتحسسها بأنامله، مثلما فعل فى المرة السابقة، وبدأ يفكر وكأنه لا يرانى ثم قال:

متحف لا.. لكن مركز الصناعات التقليدية مكان جميل.

هل فيه حاجات معينة؟ عاودت الاستفسار.

كل شئ تقليدى. أجاب

ثم عدد بلهجته أسماء أشياء فهمت بعضها، ولم أعرف المقصود بالبعض الآخر.

أخبرنى أنه يكفى أن أطلب من سائق سيارة الأجرة توصيلى لمركز الصناعات التقليدية ليأخذنى إليه، ثم أشار إلى ما أمامى من أشياء على المائدة، وسألنى إن كنت قد انتهيت من الفطور ليرفعها.

شكرته على الإفطار، وطلبت منه قهوتى التى أشربها عادة بسكر خفيف، فقال كلمة لم أفهم معناها، ولكنى خمنت

أن تكون بمعنى "بالهناء والشفاء" مثلا.

قبل أن يعود بالقهوة كنت قد أخرجت علبة سجائرى وأشعلت سيجارة، سحبت منها نفسين، ثم ملت لأشد جوربى الساقط عند ركبة ساقى اليسرى، وبينما هو يصب القهوة التى عاد بها بسرعة، سألنى إن كنت سأذهب إلى مركز الصناعات فى التو، وهل سأعود عند الظهر لتناول الغداء فى الفندق؟ فلما قلت له: طبعا طبعاً، ابتسم برقة ومضى. ذهبت إلى مركز الصناعات التقليدية، وشعرت أنى لم أبعد كثيرا عن خان الخليلى بالقاهرة، أوانٍ نحاسية وفخارية ومنسوجات تقليدية، مع اختلاف بسيط فى الألوان والأسلوب، درت فى المكان وقتا طويلا، أتفرج وأمتع عينى بالأصالة والجمال، اشتريت بعض الأشياء ثم قررت العودة إلى الفندق فى نهاية الأمر.

تأخرت قليلاً عن وقت الغداء، بسبب انتظارى طويلا

لسيارة أجره تنقلنى من أمام مركز الصناعات التقليدية حتى الفندق، وبمجرد أن دخلت المطعم وجدت الدكتور إبراهيم وزوجته وصالحاً فى انتظارى، فسألنى صالح بلهفة عن سبب تأخرى، فحكيت له عن مشكلة سيارات الأجرة ووقوفى تحت الشمس أنتظر. تركت ما ابتعته من المركز على مقعدى، وأستأذنت الجميع فى الذهاب للاغتسال فى دورة المياه.

عندما دخلت دورة المياه الملحقه بالمطعم، مشط شعرى سريعا، وغسلت يدى؛ كنت قد بدأت أشعر بصداع خفيف، الحقيقة ليس صداعا بالضبط ولكنه آلام فى عظام رأسى. عدت إلى الجماعة، وجلست إلى جوار صالح الذى سألنى عما اشتريت، فأخرجت من اللفافات الورقية إبريقا خزفيا مزخرفا بنقوش زرقاء رائعة، وشمعدانا نحاسيا صغيرا. وكان يوسف قد جاء بطبق الخبز ليضعه أمامنا، فنظر إلى الإبريق والشمعدان، ثم نظر إلى وابتسم دون أن يقول شيئا.

قالت حرم الدكتور إبراهيم وهى تمد يدها وتسحب شريحة خبز من السلة وترفعها إلى فمها.

لطيف جدا الولد الجرسون، عندنا فى البلد الجرسونات خلقتهم تقطع الخميرة من البيت، ثم ضحكت على ما قالته.

لم تبد حماسا لمشترياتى: "فخار نحاس!" واكتفت بالتعليق على أسعارها المرتفعة إذا ما قورنت بالأسعار المصرية، لم يرد أحد على رأيها فى نادلى المطاعم وأكتفى صالح وزوجها بالابتسام، فاسترسلت تحكى تجاربها مع نادلى مطاعم القطاع العام فى مصر، وقطار الأقاليم السريع، وأشارت إلى وقاحتهم ووساختهم، وطريقتهم الفجة فى التعامل مع الزبائن، وخصوصا المصريين، لأنهم لا يعطون إكراميات مثل الزبائن العرب والأجانب.

كانت آلام زورى تتزايد، وشوك خفيف قد بدأ ينبت فى حلقى آخذا فى وخزى، لم أكن أرغب فى فتح فمى والنطق

بأى كلام، ورحت أكل دون شهية، وبصمت تام مكتفية بهز رأسى وأنا أتابع ما يدور أمامى من حوار. كانت أمنيتى فى هذه اللحظة سكوت الجميع. وأن تكف نيللى عن الكلام، وينتهى واجب الغداء بسرعة لأصعد إلى غرفتى، فألقى بجسدى على الفراش وأنام. وفعلا انتهى كل ذلك بعد حين، فصعدت إلى غرفتى وحيدة، لأن صالحاً أعلن أنه سيخرج من المطعم مباشرة، بعد انتهاء الغداء إلى المستشفى الحكومى العام لزيارته، والتعرف على سير العمل فيه، وبعد ذلك إلى الندوة المسائية للمؤتمر. اقترحت نيللى أن نذهب معا هى وأنا بعد الظهر إلى سوق الذهب، لأنهم حدثوها عن المشغولات الذهبية وروعتها فى هذا البلد، وأسلوبها المختلف عن شغل الذهب فى مصر. اعتذرت لها متذرعة بضرورة أن أنام لأنى متعبة وأنه من الأفضل أن نلتقى حوالى السابعة لنتناول القهوة معا. خلعت ملابسى بسرعة، وأدخلت نفسى

كيفما اتفق فى قميص نومى القطنى السماوى، وانزلقت فى الفراش. كانت آلام رأسى تتمدد، وتسيطر على جمجمتى تماما، ودبابيس زورى تتكاثر تكاثراً لا نهائياً، تحسست جبهتى، لاحرارة تلحظ، لكن آلام رأسى تتمدد وتكتسح مساحات أخرى من عظام الجسد، خصوصا عمودى الفقرى وركبتى. ندمت على تناول وجبة الغداء، إذ شعرت برغبة خفيفة فى إفراغ ما فى جوفى، قلت لنفسى: لا داعى لذلك ودعوت ربى صادقة ألا اضطر إليه. لأن هذه العملية تكاد تقتلنى، وتجعلنى على وشك الإغماء الحقيقى. اقترحت على نفسى ابتلاع قرص اسبرين بقليل من الماء، لكن سرعان ما عدلت الاقتراح، واستبدلت الماء بفنجان من الشاى الخفيف، المعصور عليه نصف ليمونة، إذن أرتدى ملابسى، وأنزل إلى مقهى الفندق، لكن مستحيل أن تحركنى أية رغبة أو قوة من مكانى على السرير. طيب، أطلب الليمون والشاى

الإضافى هنا فى الحجرة، وإن شاء ا تزول آلامى وأنام لأقوم بعد ذاك مرتاحة.

حاولت البحث عن دليل للخدمات فلم أجده، فطلبت موظف الاستعلامات الذى حولنى إلى المطعم لأطلب منه ما أريد، طلبت الشاى والليمون، كانت روحى غائمة وأشعر بضيق فى تنفسى وتزايد رغبتى بالقئ، لكنى كنت أقاوم بعنف، فأنا أقرف من القئ أخاف أن أصاب بالإغماء بعده.. لا لن أفعل ذاك، وسأقاوم، لكن رأسى يدور وأشعر بحركة خفيفة فى سقف الحجرة، وأن التليفزيون الموضوع على المنضدة فى الركن يدور وكذلك الكرسى "الفوتيه" أيضا، وبدت لى الوردة الوحيدة فى المزهرية فوق منضدة الشاى الصغيرة، وكأنها تلف حول نفسها، النجدة يا ربى، أرجوك لا داعى للقئ، ثم سمعت طرقا خفيفا على الباب، فسحبت نفسى من السرير بصعوبة وفتحته بسرعة وأنا أشير إلى حامل

الصينية بالدخول ووضعها بالحجرة، بينما طارت قدماى إلى مغسلة الحمام، وبدأت فى التلوى، والدبيب على الأرض بقدمى الحافيتين ثم : أوع... أوع.. أوع.

كنت أتعذب فعلا، أشعر أننى سأختنق، سأموت، ستخرج احشائى عن آخرها من حلقى، طفرت الدموع من عينى، وأنا أحاول جاهدة الإمساك برأسى حتى لا يرتطم بطرف حوض المغسلة، أعاود القئ وأرسل.. أوع.. أوع، أدب على الأرض بقدمى أكثر مستنجدة بالفرج، ولكنى فى هذه اللحظات أشعر براحتين تمسكان برأسى وتحكمان حركته، أخرج ما فى جوفى دفعة واحدة، ثم أبصق مرة واثنين وثلاثا حتى لا يتبقى فى فمى ريق.

لا بأس.. لا بأس

همس يوسف برقه، بعد أن حررت يداه رأسى، وراحتا تربتان على ظهرى بحنان، أفقت من شبه الغيبوبة التى

عشتها منذ لحظات، شعرت بخجل عميق وتمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعنى، ما هذا القرف؟! لماذا أظهر فى هذه الحالة المقرفة؟ لماذا أفعل هذه الأشياء أمام الآخرين؟! لا. بل أمام يوسف تحديداً، تضاعف خجلى وشعرت بحرج لا أدرى ما أفعل معه، فتحت صنبور الماء سريعا، وغسلت وجهى ويدى، رحت أمضض فمى وأغسله بالمعجون والفرشاة، بينما الدموع تنهمر من عينى وتضيع مع الماء الذى لا أتوقف عن مسح وجهى به، سحبت المنشفة بسرعة لأجفف وجنتى وعينى، ثم خطوت إلى الحجرة تاركة الحمام، لاحظت وأنا أجلس على حافة السرير وجود يوسف واقفا إلى جوار الباب المفتوح قليلاً.

بخير؟.. أنت الآن بخير؟

تساءل بصوت خجول، فأجبته:

الحمد . أنا آسفة جدا، لا تؤاخذنى، أصلى مرهقة

بعض الشئ، ثم اختنقت الكلمات فى حلقى وانهرت باكية.

لا أعرف لماذا البكاء؟ هل من فرط الخجل؟ هل من الاضطراب والمفاجأة لدخول هذا الشاب الغريب إلى حجرتى وأنا فى هذه الحالة البائسة؟ هل لأن زورى وحلقى يحرقان حرق النار، وعظمى تتزايد أوجاعه؟ لا أعرف لماذا بكيت بحرقة على هذا النحو بكاء لا يحدث لى كثيرا، ولكنى أصاب بنوباته على فترات متباعدة ولا أستطيع إيقافه بسهولة، مثلما حدث لى منذ مدة عندما اختلفت مع زميلة لى فى العمل فاتهمتنى بأنى معقدة وأحاول فك عقدى على حسابها. رحت أبكى بمرارة من يشعر ببؤس حقيقى وضياع لا حدود له، كما لو كان هناك زر خفى بداخلى قد تم الضغط عليه، فانفجرت طاقة البكاء والألم المحتسبة بروحى. هكذا دخلت حالة انهيار بدون مقدمات، كسد طينى هش جرفه الطوفان، ولا يعلم إلا ا وحده متى يتوقف هذا الانهيار.

ماذا سيقول عنى هذا الشاب الواقف على بعد خطوات منى؟ امرأة مجنونة، مصابة بالهستريا، يا للعار وددت أن أطلب منه الخروج وتركى بمفردى، أن أقول له: كفى فرجة على حالى من فضلك، لكنى لم أقو على ذلك، وكأن هناك رغبة خفية تنبع من داخلى تلجمنى، وتجعلنى أرغب فى وجوده طوال فترة بكائى على هذا النحو، واقفا ينظر إلى بدهشة وارتباك من مكانه بجوار الباب.

لكن وقوفه لم يستمر طويلاً، اقترب منى تاركا مكانه، ركع على قدميه فى مواجهتى، ثم أمسك براحتى محاولا إبعادهما عن وجهى الذى كنت أخفيه فيهما وأنا أنهنه، همس بصعوبة وفى انفعال حقيقى:

كفى أرجوك، كفى أرجوك.

لم أكف، تحولت نهنهاتى إلى تشنج، وتواتر سقوط دموعى على نحو أسرع، مسح على شعرى بيده، وأزاح

الخصلات المبتلة بالدمع عن وجهى وعاود رجاءه لى:

كفى بنا ... كفى.. أرجوك.

رفع وجهى بيده، ونظر إلى النظرة المتمعنة ذاتها التى نظرها إلى فى المطعم، ارتبكت وشعرت برجفة فى قلبى. قررت وضع حد لكل هذا، فحملت المنشفة لأجفف دموعى، مسحت أنفى وقلت:

خلاص.. شكرا.. خلاص

لم يتحرك، ظل ينظر إلى، وعندما تأكد أنه لا دموع، لا نهنهة ولا نشيج، وقف على قدميه مرة أخرى، وذهب إلى صينية الشاى وسألنى:

كم قطعة سكر؟

بدون سكر.. شكرا. قلت.

حمل فنجان الشاى بعد أن عصر قطرات من الليمون عليه، ثم جلس إلى جوارى على حافة السرير وقال:

اشربى.. اهدأى.. هه

تناولت من يده فنجان الشاى، رشفت رشفة سريعة، ثم أخرى، شعرت أنى لا أرغب فى تناول شئ، فوضعته جانبا على الدولاب الصغير المجاور للسرير وقلت:

أريد أن أنام.. مستحيل أن اشرب أى شئ.

حمل الفنجان ووضعه على الصينية، لكنه عاد إلى مرة أخرى وتساءل:

هل عندك دواء للرأس؟

أومأت برأسى مجيبة إياه.

طيب نامى... أرجوك

خطا إلى الشباك، وأحكم إسدال الستار. وبدا للحظات حائرا، كما لو كان لا يريد مغادرة الغرفة، كمن يرغب فى عمل شئ ما لكنه لا يستطيع، وكنت أنا أيضا لا أعرف ما الذى يجب أن أقوله. أخيرا نطقت هامسة له:

يوسف اطمئن سأكون بخير.

لا أعرف ما الذى حدث بعد ذلك على وجه التحديد؟ كيف حدث؟ فقد وجدته يتقدم نحوى مرة أخرى، يجلس إلى جوارى على السرير، ثم يضمنى إلى صدره بشدة، ذبت، حقا ذبت، تلاشيت تلاشى قطرة ندى تحت شمس الصباح وشعرت أنى تضاءلت، انكمشت، حتى بت ذلك الكائن الصغير- الغريب فى صدره، عندما تركنى مرة أخرى، ونظر إلى تلك النظرة المتأملة، كنت مذهولة، مأخوذة، لا أقوى على الحركة أو فعل أى شئ، كنت فقط أرتجف، هو أيضا كان يرتجف، هب واقفا بسرعة وتنهد، وبدا كمن يحادث نفسه، ثم أغلق باب الغرفة وذهب.

"حجرة المكتب معتمة، لكن نور الغروب الخفيف يتسلل إليها، أرتجف وأحاول بلا جدوى فتح درج المكتب لإخراج الأوراق، أخيرا أفلح فى إخراجها وأبدأ فى تمزيقها، أضغط

بكل ما أملك من قوة وأمزقها قطعا قطعا، لكنى لا أنجح، لا جدوى فهى لا تتمزق وكأنها مصنوعة من رقائق الفولاذ وليس من ورق الكتابة. يتملكنى الخوف والرعب، تشل حركتى وأنا أسمع صرير المفتاح وحركة باب البيت وهو يفتح، أنهار وأشعر بالبول يتسرب من بين فخذى، وفجأة فى ضوء الغروب الميت، أجده واقفا على باب الحجرة يقهقه ساخرا ثم يقول: قلت لك إنها لا تتمزق أبداً.. حمارة، متصورة أنك قادرة على تقطيعها، مستحيل ان تقطع ان تنمحى أبداً.

صرخت، توسلت إليه أن يتركنى وشأنى. أن يسمح لى بالتخلص من الأوراق اللعينة التى تحطمنى وتمزقنى، سألته وأنا أصرخ بغضب لماذا لم يصارحنى بالحقيقة؟ ولماذا تزوجنى وهو مدرك انه هالك لا محالة؟ قلت له: إنك سافل منحط، خدعتنى وغررت بى، لو كنت صارحتنى بحقيقة

مرضك، لو كنت واضحا معى وأخبرتنى بأنه لا شفاء منه لربما كنت أحببتك، تعاطفت معك، بقيت لك الزوجة الوفية مدى الحياة، والتى تحمل ذكراك طيبة بعد مماتك، لكنك إنسان إنانى، فضلت الخديعة، فضلت أن أحيا معك فى الكذب، وتركت لى هذه الأوراق لتنغص حياتى كلها بعد موتك، لتجعلنى أكتشف حقيقتك وأكرهك، وأكره الحياة كلها بعد ذلك.

انهرت باكية وتوسلت إليه مرة أخرى أن يتركنى أمزق الأوراق، أن أعيش فى الوهم مرة أخرى، وهم أنه مات ميتة عادية فاجأته كما يفاجئ الموت كل الناس، وأنه لم يكن على علم بانقضاء أجله بعد حين بذلك الداء الخبيث الذى لا أمل فى الشفاء منه. رجوته أن يدعنى وشأنى، أن يتركنى أعيش الحياة وأقبل عليها كبقية خلق ا ، وأحب نفسى والناس، وأشعر بوجود بشر يسمونهم الرجال، مثلما تشعر بهم أية

امرأة أخرى فى العالم.

لكنه استمر فى سخريته منى، واندلعت من فمه قهقهاته النارية السمية الحقود، راح يقترب منى شيئا فشيئا وهو ينظر إلى نظرات غريبة مخيفة، ارتعبت وأخذت أحاول الابتعاد عنه لأهرب من الغرفة، لكن قدمى لم تتحركا كأنهما مسمرتان إلى الأرض. أسقط فى يدى، وشعرت أن نهايتى قد أوشكت، فأطلقت صرخة يائسة معذبة بكل ما فى من قوة، شعرت بعدها وكأنى دخلت فى غيبوبة لن أفيق منها أبدا".

وجدتنى أفتح عينى بعد هذا الكابوس، يداهمنى ضوء المصباح المصمم على هيئة فانوس عربى قديم، والمتدلى من سقف الحجرة أخيراً تنبهت على صوت صالح:

ماما مالك؟ أصح. الساعة عدت التاسعة والربع، أنت غاطة فى النوم.

أجبته بوهن:

يا خبر! فعلا غبت فى النوم، أصلى تعبت، ورجعت الأكل من معدتى بعد الغداء. حلقى ملتهب. محتمل أن الشمس ضربتنى فى دماغى، أو أن عندى نزلة برد شاعرة أنى محتاجة لمضاد حيوى وفيتامين ج.

قال صالح:

طيب تعالى معى نتعشى، لأن الدكتور إبراهيم ومدام نيللى فى انتظارنا بالمطعم، واشربى الدواء بعد الأكل. قال صالح:

لا يا صالح.. اتركنى هنا. نفسى مسدودة عن الأكل، لكنى عاوزة اشرب فنجان شاى.

هل عندك حرارة؟ تساءل.

لا، جسمى حاطط جدا، أجبته وأنا أتقلب بصعوبة فى الفراش.

طيب يا ماما، سأطلب لك الشاى ومعه زيتون أسود ولبن زبادى و"توست" بالجبن.

قال ذلك وكنت أفكر إننى لا أريد رؤية يوسف مرة أخرى، لا أرغب أن يأتى إلى هنا فى الحجرة حاملا الشاى والطعام، كنت خائفة من لقائه ورؤيته حتى فى المطعم، قلت بحدة:

لا.. لا..لا أريد أى شئ حتى الشاى.

اغتاظ واحتد قائلا:

غريب أمرك وا يا ماما، منذ لحظة قلت: عاوزة فنجان شاى، أفضل يا ماما أن تشربى الشاى وتمصى زيتونتين أو ثلاثا لأنه مفيد لزورك، ولبن الزبادى مريح لمعدتك، ومستحيل شرب المضاد الحيوى وفيتامين ج على معدة فارغة، أنا نازل بسرعة وسأرسل لك الشاى والأكل.

قمت إلى الحمام وغسلت وجهى ومشطت شعرى، وكنت

قد بدأت أشعر بقشعريرة فى جسدى، فارتديت سترة صوف خفيفة فوق قميص النوم تطلعت إلى وجهى فى المرآة: وجه شاحب بعينين منتفختين، تضايقت من منظرى، وقلت لنفسى: واحدة هشة، تبكى لأتفه الأمور كما العيال، ثم سمعت طرقا على الباب.

كنت أرتجف وأنا أدير مقبض الباب، كيف سأواجه يوسف مرة أخرى؟ كنت واهنة فعلاً، لا أستطيع التفكير أو الكلام لكن، الحمد تنفست الصعداء وانا أرى نادلا آخر غير يوسف واقفا أمامى حاملا صينية العشاء. نادلا كنت أراه يعمل فى الجزء الآخر من المطعم، المفصول عن الجزء الذى نأكل فيه بحاجز خشبى صغير من "الأربيسك" الجميل. حيانى تحية المساء. ثم وضع الصينية على المنضدة القريبة من الباب، وكان على تلك الصينية الشاى والزيتون ولبن الزبادى، إضافة إلى زبدة ومربى وخبز وكوب من عصير

البرتقال. أعطانى الفاتورة والقلم لأوقع عليها فتذكرت أنى لم أوقع فاتورة الشاى التى جاءنى به يوسف بعد الظهر، وبينما النادل يهم بالانصراف، توقف لبرهة كما لو كان قد نسى شيئا، ثم أخرج من جيبه مظروفا صغيرا أعطاه لى.

قلت بدهشة متسائلة : لى أنا؟!

هز النادل رأسه بالإيجاب ولم يزد ثم مضى بعد أن حمل صينية الشاى الذى جاء به يوسف بعد الظهر ولم أشربه، وحيانى وهو يغلق باب الغرفة برفق. بقيت حائرة للحظات لا أدرى ماذا أفعل، لكنى فتحت المظروف بعد ذلك بسرعة وقرأت:

"أظن أنه يجب أن أراك بعيدا عن الفندق، أريد التحدث معك، لن يكون ذلك فى مكان عام، فالمدينة صغيرة، سنكون معا فى بيتى، غدا سأنتظرك اعتبارا من الساعة الحادية عشرة صباحا. إعطى لسائق السيارة العنوان، سيحملك إلى

فورا. أحبك يوسف.

قرأت العنوان وقلت لنفسى بغضب: "مجنون أم طفل كبير؟! ماذا يظننى؟! امرأة سهلة؟ امراة موتورة؟!" لمت نفسى بشدة لأنى انهرت وبكيت أمامه، شعرت بندم لتركى إياه يمسك برأسى فى الحمام، ثم يضمنى إليه بعد ذلك بينما كنت أبكى على السرير، اغتظت من نفسى جدا، هذه أول مرة أقع فيها فى مشكلة من هذا النوع، موقف سخيف كهذا، لم يرسل لى أى رجل خطابا على هذا النحو من قبل، حتى قبل زواجى، تنهدت وتذكرت زواجى "أكان هذا زواجا؟! زواج فى الخامسة عشرة من العمر وكأنى خطفت خطفا؟! لكن ما هذه الوقاحة؟ أذهب إليه فى بيته، أيظن أنى مأزومة جنسيا؟. راغبة فى أى رجل والسلام؟.. لا.. فالجنس بالنسبة إلى لا يعنى شيئا، فقد تزوجت وأنجبت، ولا أعرف حتى هذه اللحظة ما المتعة الجنسية التى يتحدثون عنها عادة؟ لماذا فى

البيت أيها الوغد الصغير وليس فى مكان عام؟ وا منتهى الوقاحة والتبجح بالفعل!"

على رغم غيظى وغضبى، تمثلت فى مخيلتى صورة وجهه الجميل المترفع، سلوكه الرقيق الطيب، لا، لا يمكن أن يكون وقحا أبداً، " ولكن ماذا يظن نفسه" "دون جوان"؟.

"فالنتينو"؟! قرأت ذات مرة أن الشخصيات الرقيقة من الرجال، غالبا ما تكون ذئابا فى صورة حملان، وأنهم ينجحون فى الإيقاع بالنساء بسهولة، نظرا إلى لطفهم ورقتهم التى تجتذب فرائسهن الساذجات. ولكن الحقيقة أن يوسف لا يبدو عليه ذلك. حاولت تذكر أزيار النساء الذين رأيتهم فى أفلام السينما، الرجال المشهورين بعشق النساء لهم، أنور وجدى، آلان ديلون، جيمس دين، لكن يوسف لا يشبه أيا منهم، إنه يبدو جاداً جداً، مهذباً جداً، حتى وهو يقبلنى كان مهذبا جداً، يا إلهى ما هذه الورطة الغريبة التى وقعت فيها

فجأة؟

نسيت آلام حلقى وأوجاع جسدى، قلت لنفسى: "إنها مسخرة حقيقة وا ، سأمزق الخطاب وأنزل المطعم لأقول له: عيب عليك أن تتصرف بهذه الطريقة. احترم نفسك يا أخى"

اعترفت لنفسى بسخافتى، أنا أكذب طبعا، لا أشعر برغبة حقيقة فى تأنيبه، تذكرت كم ارتجفت، كم ذبت وهو يضمنى إليه. ارتعش قلبى من جديد وشعرت بحيرة تمنيت أن يضمنى مرة أخرى، أن أعيش اللحظات التى عشتها معه منذ ساعات قليلة، لكنى سرعان ما كابرت وتجاهلت مشاعرى هذه، وقررت أن أضع حدا للمهزلة قبل أن تبدأ.

كنت جائعة فقمت إلى الصينية وجلست إلى المنضدة ألتهم الزيتون والخبز ولبن الزبادى، حتى المربى أكلته عن آخره، ثم بلعت بقليل من الماء المضاد الحيوى وفيتامين ج،

وكانت الأفكار المشتعلة برأسى تتأجج نيرانها بمرور الوقت، وأنا أقلب المسألة على وجوهها المختلفة بينما كنت أرتشف الشاى الدافئ بحماس ولذة، فقد كنت فى حاجة شديدة إليه بالفعل.

"تصورى لو نيللى عرفت بأمر ما كتبه يوسف، ماذا ستفعل يا بنت؟! جنازة وتشبع فيها من اللاطم طبعا، تصورى لو أن الخطاب وقع فى يد صالح صدفة، بالتأكيد سينزل إلى المطعم فى التو واللحظة ويسيح دم يوسف وتبقى فضيحة بجلاجل" تذكرت يوم كنت أسير إلى جانبه فى شارع طلعت حرب وعاكسنى رجل بينما كنا نمر أمام سينما راديو، وكادت أن تحدث معركة، لولا أن ا ستر وقصر الرجل الشر وخطا الشارع منتقلا إلى الرصيف الآخر. بينما كان صالح يكيل له أفظع الشتائم، فهو على رغم هدوء طباعه، وقدرته على التحكم فى أعصابه، إلا أنه لا يحتمل أى شئ

يمس كرامتى أو يخدش حيائى.

"لكن الموضوع دخل إلى درجة من الفضيحة فى الحقيقة، فلابد أن زميل يوسف حامل الخطاب خمن ما فى الرسالة، وربما عرف مضمونها بعد أن فتحها وقرأها، فما معنى أن يحمل رسالة لى من زميل له؟ يا خبر أبيض يا بنت. كدت أبكى من الغيظ، سأحزم أمرى، وأذهب إليه فى المطعم، ثم أتحين فرصة للانفراد به لأقول له بحزم وجد: أرجوك لا تفهمنى بطريقة خاطئة، لست كما تظن، لا تحاول مضايقتى مرة أخرى، وإلا تصرفت بطريقة لن ترضيك أبدا، وربما سببت لك مشاكل لا داعى لها.

ولكن ها أنت متضايقة؟ هل أنت متضايقة يا هاجر صفوت فى قرارة نفسك وفى أعمق أعماقك؟. هبى أن صالحا لم يعرف ولا نيللى ولا زميل يوسف هل كنت تضايقت أيتها الكاذبة؟ لا، وألف لا، مشكلتك ليست فيما فعله

يوسف، لكن فى أين يعرف الآخرون ما فعله. لكن منذ متى وأنا أقبل بأمور حسمت أمرها منذ زمن مضى؟ هل هذه هى المراهقة الثانية التى يتحدثون عنها؟ لكنى أشعر أنى امرأة طبيعية، أعيش حياتى على نحو عادى، لست متصابية، ولا متهافتة على الرجال، إن سلوكى وتصرفاتى لم تتغير، وأنا لا أشعر بقلق أو اضطراب. لا يجب أن أكون حازمة صارمة، ولا أترك مجالا للشيطان ليتلاعب بى، ويفسد حياتى ويشوه صورتى أمام ابنى أغلى ما عندى فى الوجود، وأمام الناس وكل من هب ودب. تعوذت من الشيطان الرجيم وقرأت سورة "قل أعوذ برب الناس" ومددت يدى إلى المظروف لأمزق الخطاب وأرميه فى سلة المهملات، لكن قلبى لم يطاوعنى ويدى لم تجرؤ على لمس المظروف وتمزيق ما بداخله. "كم أنا كاذبة، جبانة، ضعيفة! لقد تجسدت فى مخيلتى فى هذه الأثناء صورة يوسف، وجهه! الذى تمتثل له خلجات

قلبى، يا إلهى كم أحب وأعشق هذا الوجه!. أجل انا أعشق هذا الوجه الذى أتانى مع تغريد البلبل وسطوع الشمس، وقبل إغماض جفنى لأنام. فى كل لحظة آراه متجسداً، على الأقل يجب أن أمتلك شجاعة الاعتراف بهذه الحقيقة، وليكن قرارى مختلفا. فأنا لست أول ولا آخر امرأة فى الدنيا تقع فى غرام رجل. لكن الغرام شئ وفعل الغرام شئ آخر. ليكن سأحتفظ بمشاعرى لنفسى، وأحل المشكلة بحكمة وهدوء دون إثارة غبار من الكلام لا داعى له".

استرحت من اعترافى بالحقيقة لنفسى، وللنتيجة التى توصلت إليها معها، وإذن سأدع العاصفة تمر، سأفتح التليفزيون وأتفرج على أى شئ لأسلى نفسى وألهيها عن التفكير، ولأنسى الموضوع قليلاً: عدلت عن فكرة تمزيق الخطاب، واكتفيت بوضعه فى جيب السترة وأنا أبتسم وأتعامل مع الأمربمرح وأقول لنفسى: "يا خبر أبيض على

عقول الرجال وطريقتهم فى التفكير، ماذا تصور يوسف؟!. ببساطة يطلب من واحدة الحضور إلى بيته من خلال كلمات قليلة فى ورقة، ويفترض أنها ستلبى النداء بسهولة؟! ماذا يظن هذا الشاب الصغير؟! تنهدت وأنا أبتسم مجددا فى سخرية من منطق الذكور وغرورهم، وقمت إلى التليفزيون لأفتحه فأجد نشرة الأخبار.

أخبار الرؤساء والملوك والزعماء والعسكر، ضرب من البوليس ومظاهرات من الناس، خلافات فى كل مكان من العالم على كل شئ وأى شئ، كل ساعتين يموت طفل فى الصومال،ومثله فى أقل من دقيقتين يولد فى مصر، فيضانات تكتسح أكواخ الغلابة، وناطحات سحاب تناطح بعضها قبل السحاب علواً، ثم كرة قدم ورياضية ولا جديد أو مثير فيما قالته المذيعة بجدية واهتمام، فالنشرة لا تختلف عن النشرات التى تذاع فى بلادى وأشعر معها أن الحياة لا تسير ولا تتقدم

فنشرة اليوم هى نشرة الأمس وهى نشرة الغد، تفرجت وذهنى مشغول بأحداثى الخاصة، غيرت القناة عند بداية النشرة الجوية لعلمى أنها كاذبة ولا تشير إلى الحقيقة، خصوصا فى موسم السياحة؛ حيث تتمدد أكاذيبها فتزيد درجة الحرارة أيام البرد وتقل فى أيام الحر، ليشعر السائحون أن الجو بديع والدنيا ربيع بشكل دائم. وردة الجزائرية على القناة الأخرى وأغنية قديمة عن روحها وروحه كما تقول الكلمات، الكلام جميل، لكن لماذا لا يطبق الناس كلام الأغانى؟ لماذا الحب عندنا دائما سرى ويدخل فى نطاق الفعل الفاضح العلنى إذا ما تم إشهاره؟ ولماذا كل هذه الأغانى عن الحب مادمنا نحن نحتقره ونستنكره؟!.. "لا أعرف"، لكن لماذا لا أسأل نفسى هذا السؤال واطرحه على حالتى شخصياً؟! لماذا لا أواجه الناس بمشاعرى التى اعترفت بها لنفسى منذ قليل؟.. لا...لا لن أفكر على هذا

النحو ولن أفعل ما لم أفعله خلال سنوات طويلة فأدخل فى علاقة مع رجل من جديد. لكن وجه يوسف لا يغيب عنى، ولا أدرى لماذا أنا مشدودة إليه بهذه الدرجة! هل هذا بسبب السفر وتجربة الانتقال الأولى خارج الوطن أم لأنى صرت فى مكان غريب عنى وأنا لم أبت خارج بيتى من قبل ليلة واحدة؟.

أنا متوترة حقا والتوتر يجعلنى أتوهم مشاعراً وأفكاراً ورغبة فى الإمساك بشئ، الإرتباط بشئ أو الانتماء إليه، أنا متضايقة فعلا، لأننى فى قراره نفسى أحب أن أخوض تجربة خاصة، أن أستمتع باكتشاف كائن مجهول بالنسبة إلى، لكنى جبانة. لا أمتلك شجاعة المغامرة، سأترك الأمر يمر وكأن شيئا لم يحدث. كلها أيام وأعود بعدها إلى وطنى وتمر العاصفة بسلام.

جاء صالح بعد العشاء وقال إنه مرهق وسينام فوراً،

كذلك اتصلت نيللى للاطمئنان على صحتى بعد أن أخبرها صالح أنى مريضة؛ ولهذا لم أتناول العشاء معهم، وأبدت رغبتها فى زيارتى بحجرتى والجلوس معى بعض الوقت، لكنى تذرعت بأن صالحا سينام، وكذلك أنا. تأكد صالح من تناولى الدواء، وأخبرنى أن برنامج الغد سيكون جولة ترفيهية فى أطلال مدينة أثرية قديمة، تعود إلى عصر الرومان، وتبعد عن المدينة التى ننزل فيها حوالى ساعتين بالسيارة. طلب منى أن أنام جيداً وأستريح حتى أصحبه مع بقية أعضاء المؤتمر فى هذه الرحلة، وقال إن تناول الغداء سوف يكون فى مطعم شهير بهذه المدينة بالقرب من عيون مياه معدنية رائعة.

شعرت أن هذه الرحلة هى الحل السماوى المرسل إلى عن طريق صالح، فقلت له إنى سأذهب بالتأكيد، وإنى أخذت الدواء وأشعر بتحسن، وآلام رأسى بدأت تختفى. تحسست

بأنامل قلقة خطاب يوسف المدسوس فى جيب سترتى وصالح يقول:

فى الثامنة صباحا تتحرك السيارات من أمام الفندق.

قلت بالتأكيد:

بإذن واحد أحد. أضبط الساعة على السابعة؛ حتى نلبس ونستعد على راحتنا وبهدوء.

طيب.

قال ونصحنى أن أرتدى سترة ثقيلة، لأن المدينة فى الجبل ومن المحتمل أن يكون الطقس بارداً فيها، ثم دخل الحمام ليغتسل قبل النوم.

حمدت ا مرة أخرى على أن الحل جاء من عنده، وأننى سأضطر لمغادرة الفندق مع الجميع فى الثامنة صباحا، وأن موضوع يوسف سيحل بهدوء، ونمت مطمئنة جداً.

يوم عروبة

(١)

استيقظت على صوت صالح وهو يطلب منها النهوض فوراً، حتى لا يتأخر عن موعد السيارة، تقلبت فى الفراش وتثاءبت بكسل، كانت تشعر بحاجتها إلى مزيد من النوم، لكن صالحا رجاها مرة أخرى أن تنهض بسرعة لأن الساعة بلغت الثامنة إلا ربعا، وقد آثر أن يتركها تنام حتى هذا الوقت على الرغم من استيقاظه فى السابعة؛ لأنها كانت مستغرقة تماما فى النوم، حتى أنها لم تسمع رنين الساعة ولا صوت حركته وهو يستحم ويحلق ذقنه ويرتدى ملابسه. ضحك وقال لها:

واضح أن أعصابك مسترخية تماماً يا ماما، على فكرة من المحتمل أن يكون السبب عدم تلوث الجو وشعورك بالابتعاد عن التوتر فى مصر!

لم ترد عليه. كانت تشعر أن جسدها ساخن وعظامها متكسرة، وأنها ليست نشيطة كما يجب. قالت لابنها:

شاعرة أن عندى حرارة، وجسمى كأنه زكيبة رمل.

يا خبر! طيب خلينى أقيس لك الحرارة. قال.

مد يده إلى حقيبة يده، وأخرج منها ميزان الحرارة، ثم دسه فى فمها بسرعة بعد أن طهره بالكولونيا.

بعد ثلاث دقائق نظر إلى مؤشر الميزان بعد إخراجه من فمها وقال:

درجة إلا أربع شرطات... لاداعى للانزعاج.

طيب، الحمد . بسرعة أجهز نفسى ونخرج فوراً. قالت.

رد عليها بصوت فاتر وهو يفكر كما لو كان مهموما بأمر ما: طيب يا ستى

نهضت متثاقلة من السرير، توجهت إلى الحمام، غسلت وجهها ونظفت أسنانها، وبينما هى تهم بفتح أزرار قميص نومها لتغسل صدرها ورقبتها، جاءها صالح عبر باب الحمام المغلق:

ماما... رأيى أنه لا داعى لذهابك إلى الرحلة معى، أفضل لك الاستراحة فى الفندق، لأن من المحتمل تقلب الجو، وربما تحول إلى برد شديد فتزيد حرارتك وتتعقد المسألة.

لا.. لا أنا تمام، ولى رغبة فى زياة المدينة القديمة، ثم إننى ناوية ألبس البالطو التريكو الرمادى فوق الفستان، وألف دماغى بشال الصوف. مستحيل أبقى فى الفندق وحدى اليوم بطوله.

رجاها قائلا:

ماما.. صدقا لا داعى لحضورك، خليك هنا أفضل من التعب وهدة الحيل، خليك راقدة فى السرير اليوم كله، وخلى

جسمك يستريح يا حبيبتى؛ الآثار عندنا فى مصر على قفا من يشيل، لا أول لها ولا آخر. الآثار هنا كلها رومانية، معبد متهدم، عمود هنا وحيطة هناك، لا شئ يستحق منك الإصرار على الرحلة إلى هذه الدرجة.

أصرت على الذهاب وصرخت فيه بعصبية لم يفهم سببها وهى تقول له:

هل أنت وصى على؟! قلت عاوزة أروح يعنى عاوزة أروح، وأنت نفسك قلت إن الحرارة خفيفة، تبقى المسألة بسيطة، ومحتمل أن يحسن الخروج حالتى بدلاً من رقدة السرير يا أخى! يا فتاح يا كريم.

ردت عليه بغيظ بينما كانت تجفف قدميها بالمنشفة فى الحمام فلما تبين إصرارها وعنادها، رد عليها بحدة قائلاً:

بصراحة، عندك زيادة فى الحرارة درجتان، ومن المحتمل زيادتها بمرور الوقت فتصبح مشكلة فعلا، لازم اك أخذ المضاد كل ست ساعات والاستراحة فى السرير... ا

شعرت بجدية كلامه، خافت وسكتت، ثم أعلنت أنها لن تذهب بالفعل خصوصا عندما قال إنه لن يذهب إلى الرحلة وسيبقى ليراقب حالتها، وحتى لا تشعر بالوحدة والملل من بقائها وحيدة فى الحجرة طوال النهار. لكنه خرج بعد أن رجته الذهاب إلى المدينة الأثرية وعدم القلق عليها، وسرعان ما نامت بعد تناولها الدواء.

لا تدرى أى أحلام حلمت، وأى كوابيس زارتها؟ فقد وجدت نفسها تفيق بعد فترة على أصوات أبواب الحجرات المجاورة وهى تفتح وتغلق، وأصوات عاملات نظافة الغرف، وهن يتحدثن ويتضاحكن. تثاءبت وجلست فى السرير، ثم نظرت إلى الساعة، كانت العاشرة والنصف

وخمس دقائق. تذكرت خطاب يوسف، بدا لها وكأنه خبر عادى قرأته فى جريدة قديمة. اكتشفت أنها بالغت كثيرا فى أهمية وخطورة ما كتبه لها فى الليلة الفائتة. اقترحت على نفسها الانتعاش بحمام ساخن، لكنها تذكرت حرارتها المرتفعة، وضعت يدها على جبينها، فشعرت أن لا شئ يستحق القلق، لكن عظامها مازالت تؤلمها إلى حد ما وخصوصا مفاصل ركبتها، قررت الاسترخاء فى الفراش طيلة النهار حتى وقت عودة صالح من الرحلة، كما قررت طلب كأس من الشاى وبعض الخبز لتأكله فى الحجرة.

خططت لنفسها أن تقرأ خلال بقائها مجلة العروبة، التى جلبتها معها من المطار فى القاهرة ولم تتصفحها حتى الآن، وأن تقتل بقية وقت النهار بالفرجة على التليفزيون.

طرق الباب عدة طرقات، ظنت أنها عاملة التنظيف قالت:

ادخل. مفتوح

لكن الطرق استمر فاضطرت للقيام وهى متأففة لتفتح الباب وهى تقول:

المفروض أن عندك مفتاحاً يا مدموزيل.. افتحى وخلاص.

فتحت الباب، وجدت أمامها عامل الاستقبال بالفندق يقول لها: سيارة الأجرة تنتظرك يا مدام.

أية سيارة أجرة؟! أنا لم أطلب سيارة أجرة!. كادت تقول ذلك، لكنها فكرت بسرعة قبل أن تنطق. إذن هو أرسل السيارة أيضا، "مجنون ودين النبى"، قالت لروحها،ووقعت فى حيرة لبرهة، لكنها لا تريد أن يلحظ عامل الفندق ارتباكها، لا تريد أن يعرف أى إنسان شيئا عن هذا الأمر، لذلك قالت بهدوء.

طيب قل له أن ينتظر خمس دقائق من فضلك.

خلعت قميص النوم بسرعة، ثم دخلت فى ثوبها المشمشى "الجرسيه" وارتدت فوقه السترة الصوف التى كانت ترتديها على قميص النوم. لمت شعرها كيفما اتفق وأدخلت قدميها فى حذاء أسود بلا كعب. وبعد دقائق ليس إلا كانت تغلق باب السيارة وهى بداخلها تجلس على المقعد الخلفى تغلى من الغيظ والانفعال.

خطتها التى نسجتها على عجل، كانت بسيطة جدا: تذهب بالسيارة إلى وسط المدينة، ثم تجلس على أى مقهى، لتتناول شيئا، وبعدها تأخذ سيارة أخرى راجعة إلى الفندق، وهكذا تمر العاصفة بهدوء.

لكن ما حدث بدأ يثير قلقها ويدخل الرعب إلى قلبها، فسائق السيارة لم يسألها عن وجهتها، بل ظل صامتا كتمثال وهو يقود سيارته بهدوء. فكرت أن تسأله لماذا لم يسألها أين ستذهب؟! أن تأمره بالذهاب بها إلى وسط المدينة، لكنها

لا تستطع وكأن شيئا قد عقد لسانها وألجمه وجعلها لا تقوى على النطق والكلام. نظريا فهمت إلى أين ستذهب السيارة، لكن شعوريا كان الرعب يشلها. السائق يدير مؤشر مذياع السيارة، صوت عبد الحليم حافظ يصدح: "اسبقنى يا قلبى اسبقنى"، يهيأ لها أنها لمحت ابتسامة على شفتى سائق السيارة، وقح! ماذا يظن؟ يجب أن تصرخ فيه وتأمره بالوقوف حالاً، لكنها بدلا من ذلك تحتضن حقيبة يدها وتنكمش على نفسها، وتبدأ فى التمتمة وقراءة "قل هو ا أحد". توجست ألا يكون يوسف هو الذى أرسل هذه السيارة، محتمل أن تكون عصابة من اللصوص مثلا. "يا خبر أسود يا هاجر، رحت فى داهية". السيارة تجتاز شوارع المدينة، وروحها لا تجتاز المسافة بين الحياة والموت، بين التصديق وعدم التصديق وكأنها تتابع مشاهد فيلم سينمائي خرافي، تحاول إلهاء نفسها ومتابعة مشاهد الطريق. نظرت إلى

ساعتها كانت الحادية عشرة إلا خمس دقائق. السيارة تدخل ضاحية هادئة جميلة معظم بيوتها مكون من طابق أو اثنين على الأكثر. وتحيط بها حدائق نضرة، لكن ثمة بنايات قليلة عالية نوعا، تتوزع هنا وهناك توقف السائق أخيرا أمام واحدة منها، ونزل ثم استدر وفتح لها باب السيارة الخلفى، مبتسماً ابتسامة خفيفة ومواصلا صمته.

سألته عن الأجرة نظر إليها نظرة شعرت معها أنه يخفى وراءها شيئا، ثم ابتسم مرة أخرى بعد أن قال لها إنها مدفوعة ومضى.

سارت فى إتجاه البناية، والسيارة تبتعد عنها، حاولت أن تكون طبيعية، البناية تحمل الرقم ذاته للعنوان الموجود بجيبها. دلفت إلى الممشى الطويل المشجر المؤدى إلى المدخل الرئيسى الموزع للشقق، نظرت إلى الأرقام المثبتة أعلى الأبواب، اكتشفت أن رقم الشقة المطلوب. شقة يوسف

يقع أمام عينيها مباشرة: تنفست الصعداء قبل أن تهم بدق الجرس، لكن الباب قد سبقها وانفتح قبل ملامسة شاهدها للزر الأحمر الصغير.

وجدت يوسف أمامها مباشرة وهو يقول:

اخيرا.. أخيرا.. بعد ألف سنة جئت.

أنت مجنون، متهور، مغرور، ماذا تظنني؟! امرأة تلتقطها من الطريق؟! مهووسة تفتش عن رجل بأية طريقة؟! من أنت حتى تعطى لنفسك حق مخاطبتى بهذه الطريقة؟ أتعرف أن صالحا لو عرف بأمر الخطاب لشرب من دمك: لقد جئت هنا لأحدثك بهدوء وأقول لك إياك أن تتمادى فى أمور صبيانية من هذا النوع مرة اخرى.

لم تنطق بأية كلمة من كلمات الجمل الطويلة السابقة، التى راحت تستعد بها لمواجهته، وترددها بينها وبين نفسها وهى فى طريقها إليه بالسيارة. وقفت كجلمود صخر لم

يحطه السيل من عل، كتمثال رخامى مشدود بمغناطيس قوى إلى الأرض. وقفت تنظر إليه فقط تنظر إليه، مد يده إليها، أمسكها وقبلها، ثم أحاط كتفها بذراعه وسار بها إلى الداخل.

(٢)

سرت إلى جانبه كالمنومة مجتازين ردهة البيت الفسيحة، كنت أرتجف وأحاول التماسك كيلا أنهار. أريد أن أكون قوية، أن أتحدث بمنطق واضح وأضع المسألة فى حدودها، لكن وجه يوسف يكبلنى كلما نظرت إليه، يشل لسانى ويحيلنى إلى كتلة من العجز فلا أقوى على فعل شئ ما عدا أن أنظر وأملأ عينى اللتين لا تشبعان من رؤية هذا الوجه.

كنت أعرف أنك آتية يا هاجر. قال وهو يدعونى إلى الجلوس على أريكة تقليدية الصناعة ويشرع بالجلوس عليها.

ما شاء ا ! أيعرف اسمى أيضا؟!.. من أين له هذا؟ ساءلته بعد أن ساءلت نفسى مستنكرة.

قبل أن يجيب قلت بسرعة:

يوسف. لقد دفعتنى دفعا للمجئ، أنا لست كما تظن وتتخيل، إنى أحاول التعامل مع المسألة بهدوء لأنى لا أريد مشاكل، لا أريد أن أكون قصة لا أساس لها من الحقيقة، ولا رماداً بلا نار فعلية.

جذبنى إليه، حط رأسى على صدره وهو يقول:

لا تضيعى الوقت، لا تفسدى اللحظة بما لا يفيد، الآن عليك أن تفعلى شيئاً واحداً، أن تخرجى من الشرنقة وتطيرى، ثم اولا، وقبل أن نختلف، هيا نتفق.

أنا أحبك وأنت تحبيننى، أشتهيك وتشتهيننى، ثم ألا يجب أن نتعارف أولاً، أن تعرفينى وأعرفك؟

أنا يوسف بن محمود، خريج فلسفة ونادل فى فندق، ولقد وجدت المرأة التى أحبها وتحبنى، وانتظرتها وانتظرتنى منذ آلاف السنين.

ضحكت، وسألته عن حكاية آلاف السنين.

رد قائلاً:

بعد قليل، سأثبت لك أنى انتظرتك منذ آلاف السنين، ولكن كلمينى عنك بسرعة.

اسمع يا يوسف – قلت بجد – أنا لم أجئ هنا للكلام عن نفسى، لكننى جئت لأقول لك: لا تفهمنى بصورة مغلوطة من فضلك، ولا داعى لمزيد من المشاكل: أنت أربكتنى فعلا بكتابتك لى، وحكاية السيارة زادت وغطت، أنا يا يوسف آسفة، تصرفت دون شعور منى يوم بكيت، وربما أدى ذلك إلى أن تظن بى الظنون وتفهمنى بشكل غير صحيح.

عقد حاجبيه المستويين؛ حاجبان قلما رأيت مثلهما فى وجه رجل، ولأول مرة أراه متضايقا هكذا، كان متضايقاً وليس غاضباً زفر ثم قال:

أرجوك أخرجى من الشرنقة، لا تهدرى الوقت أنا أقول

لك انتظرتك منذ آلاف السنين، هل تفهمين ذلك؟

فى الحياة توجد لحظات لا يعرف المرء كيف يقيس صدقها، ثمة شئ خفى بداخل كل منا يكون بوصلة للصدق، شعرت أن يوسف صادق فيما يقول حقا، لم يترك صدقة لى مجالا كى أقول المزيد، فحدثته عن نفسى قائلة:

يوسف.. أنا أرملة منذ كان عمرى ثمانية عشر عاماً، وأم منذ السادسة عشرة، وموظفة منذ ما يزيد على عشرين عاما. هذا كل شئ عنى.

وأيضا، قال.

وأيضا.! لا أعرف ماذا تقصد بأيضا.

مثلا لماذا لم تتزوجى مرة أخرى، لا تقولى: حتى أتفرغ لتربية ابنى ولا تقولى لأنك تفضلين العلاقات الحرة بدون ارتباط، فلا يبدو عليك أنك من ذلك النوع.

دهشت! هو يريد محاصرتى لأعترف، يقطع الطريق

على حتى لا أقول إلا الحقيقة.. أجبته بهدوء:

فعلا يا يوسف، كان لى سببى الخاص، سببى الغريب جدا، الذى حال بينى وبين الرجال، سبب يصعب أن يفهمه أى إنسان آخر غيرى. أنا سأفهمه بلا شك. قال.

ترددت قليلا قبل أن أحكى له. فأنا لا أحب الحديث عن حياتى الزوجية القصيرة، سيرتى خلالها لا تبعث فى نفسى إلا الآلام. لقد سرقنى زوجى وخدعنى، سرقنى من صباى وشبابى الأول، واغتالنى فى عز نضارتى وتفتحى. تذكرت كيف تم زواجى منه. تذكرت يوم جاء مع أمه وأبيه لخطبتى، وفرحة أمى وأبى به، الزوج اللقطة الذى لن يجود الدهر على مثلى بواحد مثله مرة أخرى! عودتى من المدرسة ذلك اليوم لأجدهم فى بيتنا، تدخلنى أمى عليهم بالشراب المثلج. فتأخذنى أمه فى حضنها وتتحسس جسدى، صدرى وأردافى، ثم تلق زغرودة طويلة تسرى معها قشعريرة فى جسدى؛ إذ

أدرك حقيقة ما وراء هذا الصوت الطويل الهستيرى المفزع. تذكرت ليلة زفافى، اقتحامه لجسدى وقضاء وطره منى، دمى النازف على الفراش.

لا لا أريد هذه السيرة، لن أحكى شيئاً.. لن أقول ما يود سماعه منى، قررت إعطاءه ملخصا موجزاً لأنهى الموضوع فقلت:

يا سيدى، زوجى كان صيدليا، يمتلك صيدلية فى ضاحية راقية من ضواحى القاهرة، وهو من أقرباء أمى الأباعد، رآنى مرة فى عرس عائلى، وكنت وقتها فى الخامسة عشرة من عمرى، فأعجب بى وتقدم لخطبتى، وافق أبى وفرحت أمى، فقد كان غنياً، يمتلك أرضاً، ولم يحل عمره البالغ آنذاك خمسا وثلاثين سنة دون الموافقة الأسرية عليه وإتمام زواجنا.

تابع كلامى باهتمام ثم قال:

لكن وفاته لا تكفى ذريعة لعدم ارتباطك وزواجك من رجل آخر بعده.

تساءل فتنهدت وأوضحت:

خلال سنة زواجنا الأولى اكتشفت مدى عنفه معى، فهو عصبى يعنفنى لأتفه الأسباب، ويعاملنى بصرامة ويغار على غيرة فظيعة، وعندما كنت أشتكى لأمى، كانت تطيب خاطرى وتقول لى إنه يحبنى، وبصراحة كنت أخافه وأهابه وأتميز غيظا عندما يتركنى وحيدة، كل عدة شهور ليسافر إلى أوروبا بحجة العمل واستيراد أدوية خاصة لا تنتج فى مصر.

بالطبع كان على علاقة بنساء أوروبيات. قال.

زفت بحرارة وأنا أتذكر تلك الفترة البعيدة من حياتى واستطردت قائلة:

تصورت مثلك أن الأمر هكذا،وليته كان، فبعد عامين من زواجنا مرض مرضا شديدا لم يهمله، وبعد وفاته اكتشفت بالصدفة، بينما كنت أقلب فى أوراق كان يحتفظ بها فى درج مكتبه، أنه كان مريضا مرضا خبيثاً يستلزم تغيير دمه كل عدة شهور، كان مدركا لحقيقة أن حياته قصيرة ولا رجاء فيها، لكنه تزوجنى دون أن يبوح لى بسره، كان يريد وريثا فقط، طفلا يحمل اسمه يحفظ ثروته بعد وفاته، وربما كان ذلك وراء تغير معاملته لى بعد إنجابى صالحاً، الذى كتب له معظم ثروته ولم يترك إلا القليل منها، خوفا من زواجى بعد مماته، لكن عم صالح وضع يده على الأرض ومعظم أملاك زوجى وراح يتحكم فيها، وبيننا وبينه قضايا ومشاكل فى المحاكم لم تنته حتى الآن.

آه، من هنا كانت طريقتك الحزينة فى النظر، وملامحك المعبرة عن اليأس دائما، تنهد ونظر إلى بتمعن، ثم اقترب

منى وأحاطنى بذراعه رابتا على كتفى، واقترح أن يعد قهوة نشربها معا، ودعانى للذهاب معه إلى المطبخ لنتحادث فى هذه الأثناء.

ولجت معه إلى المطبخ. اكتشفت أن البيت صغير، حجرة واحدة واسعة إضافة إلى الردهة التى كنا نجلس فيها، لكن على رغم ذلك كل شئ فى البيت مرتب نظيف، ينم عن حسن ذوق صاحبه. الكتب تتناثر فى أماكن كثيرة، حتى فى المطبخ المحتوى على منضدة صغيرة وكرسيين ودولاب خشبى مدهون بالأبيض معلق على الحائط. وضع شريط موسيقى فى المسجل الموضوع على المنضدة، ووقف أمام الموقد يعد القهوة، تأملته من الخلف، جسده نحيل وظهره مستقيم مفرود تبرز سلسلة عموده الفقرى تحت قميصه الأبيض بوضوح، اعترفت لنفسى:

"ما أجملك يا يوسف! أنا أحبك وأشتهيك فعلا. ماذا أفعل

يا ربى؟" وقفت خلفه ومددت يدى ولامست شعره الفاحم. دسست أنفى فى ظهره وتنشقت رائحته عبر القميص الأبيض الشفيف الذى كان يرتديه وهمست:

أحبك يا يوسف.

ترك القهوة على الموقد وأطفأ شعلة الغاز، ثم أستدار واحتوى بعضنا بعضا، كان يضغط بذراعيه على جسمى، وكنت أحاول احتواءه بداخلى.

ارتجفنا ارتجافه المطارد بالصقيع، وأخيرا عثرت الشفاه الولهى على بعضها، وضعنا فى قبلات طويلة ممتدة عرفت معها ماذا يقصد بآلاف السنين.

تباعدنا قليلاً ولم ننطق بكلمة، راح يستكمل إعداد القهوة، ثم وضع وعاءها النحاسى والفناجين الخزفية على صفحة خشبية محفورة، وعندما عدنا إلى جلستنا الأولى فى غرفة الاستقبال قال:

هل تدركين لماذا أحب كل منا الآخر؟ لأن ذاكرة جسدينا الكامنة استيقظت فجأة عندما التقينا، فمنذ آلاف السنين تكونت "جينات" رجل له صفات "جيناتى" أحب امرأة لها صفات "جيناتك" ولهذا تحاببنا منذ الوهلة الأولى، إذ انتقلت ذاكرة "جينات" الرجل الذى عاش فى الماضى البعيد إلى "جيناتى" وذاكرة "جينات" المرأة القديمة إلى " جيناتك" فتحاببنا، وعشق كل منا الآخر.

يا سلام! قلت وضحكت.

بالطبع يصعب عليك تخيل هذا والاقتناع به، ولكن ما تفسيرك لما حدث بيننا؟!.. أنا مجرد نادل فى مطعم، وأنت زوجة لصيدلى متوفى وأم لطبيب، عمرى أصغر من عمرك بكثير، فلماذا اعشق امرأة فى سنك؟ إن ذاكرة "الجينات" كانت أقوى من كل هذه الأمور، فانجذبنا لبعضنا و...

قاطعته قائلة:

على فكرة يا يوسف، كم سنة عمرك؟

ثمان وعشرون. أجاب

ابتسمت بمرارة،إذ أن معنى هذا أنه يكبر صالحا ابنى بسنة واحدة لا غير. وماذا كنت أظن؟ واضح أن عمره لم يتجاوز الثلاثين ما أفظعنى امرأة! فإما أن أكون قد غررت بشاب فى عمر ابنى، أو أن شابا فى عمر ابنى غرر بى. أنا لا أعرف أيهما أدق فى الحقيقة، لكن أية حقيقة تعنينى الآن غير أنى أحبه؟ أعيش مشاعر لم أعشها من قبل أبدا. أنا حائرة لا أدرى ماذا أفعل بالضبط؟!

حمل يوسف فنجان القهوة وقدمه لى وهو يتأملنى وأنا غارقه فى أفكارى، سألنى أن أقول له عما أفكر فيه خلال هذه اللحظات، فصارحته بما كنت أحادث به روحى، دون زيادة ولا نقصان. رفع يدى وضمها بين يديه وقال:

فى كل النظيرات والتحليلات، مستحيل أن تنشأ علاقة سوية حقيقة بيننا، لكن استخدمى نظرية ذاكرة "الجينات" وستجدينها معقولة جدا، وقادرة على تفسير حالتنا.

قلت لنفسى وأنا أرتشف القهوة اللذيذة: " لا يا فيلسوفى الصغير؛ ليست نظرية "الجينات" ولكنها نظرية "الصدق" لم أكن أبحث أبداً عن رجل أعتقد فيه الصدق، بعدما اصطدمت فى مطلع حياتى برجل الكذب، فكل الرجال باتوا فى نظرى كاذبين مخادعين، مثل رجلى الذى مات وهو يعرف أنه سيموت، ولم يكلف خاطره بمصارحتى أو مواجهتى، بل تزوجنى ليجعلنى أرملة مع سبق الإصرار. اختارنى لأكون ذريعة لامتداده فى الحياة. وعاء كنت أنا للحفاظ على نوعه من الانقراض، وأداة انتقاها ودفع ثمنها لتكون معبرا للذاكرة إليه بعد موته.

زفرت بشدة وخطرت فى خاطرى فكرة فسألت:

كم امرأة أحببت قبلى يا يوسف؟

ولا واحدة. أجاب.

لم أصدقه فى الحقيقة، ويبدو أن ذلك بان على وجهى، فأردف قائلاً:

أحبتنى نساء كثيرات منذ بداية طلعتى. زوجة أبى على سبيل المثال أحبتنى جداً، كانت إنسانة طيبة، أغدقت حنانها وعطفها على، ولم تحاول إغوائى؛ رحمها ا ورحم أبى أيضاً.

إذن أنت بلا أسرة ولا عائلة. تساءلت وتحسرت.

تقريبا. لى أخت وحيدة من أبى، تزوجت منذ سنوات، لكن العلاقة بيننا ليست قوية على أية حال، لأنها ربيت فى بيت خالتها منذ صغرها، بعد أن تبنتها هذه الخاله عقب وفاة والدى وزوجته فجأة فى حادث سيارة، كنت وقتها فى حوالى السابعة عشرة، فبقيت فى دارنا ورحلت أختى الصغيرة مع

خالتها.

كيف عشت وتربيت وتعلمت؟! كيف تأكل وتشرب؟ من كان ينفق عليك؟!.. أردت أن أسأله أسئلة كثيرة، لكنى صمت، وصمت هو.

أخرجت علبة سجائرى والولاعة، وبدأت أشعل سيجارة، سحب يوسف الدخان والسجائر من يدى بهدوء وقال:

قلت لك أخرجى من الشرنقة، لكنك لم تسألينى ما الشرنقة؟

طيب ما الشرنقة؟ ضحكت وسألته.

فكرى أولا. رد.

لا أعرف. ضحكت مرة أخرى وأجبت.

الأوهام. كل الأوهام التى نعيشها، والأكاذيب التى نغلف أنفسنا بها. قال، ثم رفع علبة السجائر بيده وأضاف:

هذه مثلا، أحد خيوط الشرنقة، وهم من الأوهام التى

نعيش فيها. لم أرد. يبدو لى هذا الشاب غريبا بعض الشئ. نادل فى مطعم، وعنده أكوام من الكتب، ثم الخطاب الذى أرسله لى، سيارة الأجرة، شعرت بالارتباك والغيظ من جديد عندما تذكرت حكاية الخطاب والسيارة، فسألته عنهما بغضب فقال:

تتصرفين، وكأن شخصا يراقبك أو يطاردك، الحكاية ببساطة أننى قلت لزميلى إن الخطاب من أصدقاء لك هنا.

من المحتمل أنه فتحه وقرأه. رددت عليه بسرعة.

مستحيل، لأنك لست مركز الكون يا سيدتى كما تظنين، لا أحد يهتم بك إلى درجة التفتيش فى خطاب صغير مرسل إليك، أما السيارة فقد طلبت من سائقها إيصالك إلى هنا، خوفا من أن تضلى الطريق، لو تكونى قد ضيعت العنوان: ما الغريب فى كل هذا؟

ثم أمسك بيدى فجأة وقال:

تعالى، أريد أن أريك شيئاً.

مشينا معاً إلى الغرفة الوحيدة فى البيت، لا شئ فيها سوى بساط من الصوف يغطى الأرضية تقريبا، وقد زين بنقوش بدوية صحراوية، وفوق البساط حاشية سرير عريضة بمفرش أبيض ناصع، كانت ثمة كتب متناثرة فى أركان الغرفة، وفوق خزانة الملابس القديمة ذات المصراع الواحد، والتى ثبتت على اتساعها مرآه كبيرة. مكثت واقفة على باب الغرفة، بينما دخل يوسف وفتح الخزانة ثم أخرج منها علبة خشبية محفورة، عاد بها وقال وهو يفتحها:

انظرى رائعة!

قطعة صغيرة من الحجر النارى الملون، مثقوبة ومضمومة فى خيط أسود سميك، كدت أضحك لمرآها واهتمامه بها، لكنى وجدته جاداً وهو يقول:

هذه أعز ما أملك فى الحياة، أهديها إليك الشئ الوحيد الذى ورثته عن امى.

ثم تابع كلامه قائلاً:

هيا نقيم حفلة صغيرة بمناسبة هذا الإهداء.

تركنى حائرة، مندهشة، واقفة عند باب الحجرة وقطعة الحجر ذات الخيط فى يدى. ذهب إلى المطبخ. وعاد حاملا بيديه كوبين وزجاجة نبيذ أحمر. ملأ الكأسين وناولنى واحداً، وقال وهو يرفع كأسه ويلامس به كأسى الذى كنت قد رفعته أيضاً.

فى صحة جيناتنا العبقرية.

رشفت قليلا من النبيذ، وذهب بعد أن فعل مثلى وعاد بصفحة عليها أطباق اللوز والزيتون الأسود والأخضر، ثم قال:

تعالى لنرى كيف يكون شكل هذه التعويذة على صدرك.

رجعنا إلى جلستنا الأولى على الأريكة، ووضع على المنضدة ما يحمله، ثم راح يخلع سلسلتى الذهبية ذات الدلاية المحفور عليها "ما شاء ا " والمعلقة فى صدرى، وضعها فى يدى، ثم علق قطعة الحجر فى صدرى بدلاً منها. وأخذ ينظر إلى كنت حائرة، مرتبكة، لا أدرى هل أسر وأشكره، أم أغضب وأقول له "كفى لعب عيال"؟ أسقط فى يدى وابتسمت مجاراة لابتسامته، مسح على خدى ولامسه بشفتيه، ثم عاد إلى مكانه بجانبى.

قلت لنفسى بوضوح: هذا الشاب أفاق، أو ممثل ماهر، أو مجنون، ولسوف تتضح الحقيقة بعد قليل.

كانت الموسيقى قد انتهت، قلت لروحى: لن أشرب الكأس كاملاً، فأنا أدوخ بسرعة، ولا أريد أن أفقد وعيى، إضافة إلى أنى اخذت المضاد الحيوى قبل خروجى، ولا أريد إبطال مفعوله بالكحول. لاحظت أنه شرب كأسه

بسرعه، وأن وجنتيه تشربتا بالحمرة قليلاً، فأصبح وجهه متألقا ساحراً، ويبدو أنه لاحظ أنى ألاحظه فقال:

هل لديك خطة بخصوص ما سنفعله خلال الساعتين المقبلتين؟ فوجئت بالسؤال ونظرت إليه بدهشة ولم أرد. أضاف:

طيب، هل لديك خطة لما سوف تفعلينه خلال الشهر القادم؟

أجبت ضاحكة:

سأفعل ما كنت أفعله طوال السنوات الماضية بالطبع. أذهب إلى العمل عند الصباح وأعود ظهراً، أنتظر صالحا حتى يعود من الجامعة، ونتناول الغداء، ثم يذهب إلى عمله المسائى، وأمضى فترة بعد الظهر فى قضاء شؤون منزلية مختلفة حتى يعود.

لا.. لن تفعلى ذلك بعد الآن أبداً. قال بهدوء.

خفت حقا، وداخلتنى قشعريرة، وأنا أنظر إلى عينيه الملتمعتين بالغرابة بينما كان يقول ذلك. هذه البلاد مشهورة عندنا بالسحر والسحرة ويبدو أننى وقعت فى براثن واحد من هؤلاء السحرة، أريد أن أهرب من هذا المكان أن أرجع إلى الفندق فوراً، كان يجب ألا آتى، حاولت الانسحاب بكياسة ولطف فقلت:

يوسف، هل أنت فى إجازة اليوم؟

فى إجازة حتى السابعة مساء، سأعود إلى الفندق بعد عودتك إليه.

لكنى لن أبقى حتى المساء. قلت موضحة.

سنبقى معاً حتى تغرب الشمس. رد بهدوء:

لا.. لن أستطيع، صالح سيعود من الرحلة، وإن لم يجدنى سيقلق ومن المحتمل أن يكون قد اتصل هاتفيا بالفندق ولم يجدنى، وهو يتساءل: أين ذهبت؟

لا تفكرى فى ذلك الآن، صالح لن يسأل، والمدينة التى ذهب إليها لا يمكن العودة منها قبل المساء.

بحركة لا إرادية رفعت كأسى وارتشفت رشفة كبيرة من النبيذ. بدأت أشعر بارتخاء فى أعصابى، فخلعت حذائى وتركت قدمى حافيتين على الأرض. قام يوسف بسرعة وحمل حذائى بعيداً فوضعه فى المدخل قرب الباب، ثم عاد بخف رجالى أبيض رقيق وضعه فى قدمى، خجلت وانحنيت لامنعه، لكنى وجدت وجهه قريبا من وجهى، وعينيه فى عينى، فلم أر نفسى إلا وأنا أحوطه بذراعى، وأضع رأسه فى صدرى وأقبله بشدة، نهض فجأة وحملنى بسرعة ووضعنى على الحاشية فى الغرفة الوحيدة فى البيت.

لا أعرف كم من الوقت مضى علينا، ونحن غارقان فى غيبوبة الجينات؟.. يوسف لا يشبع وأنا لا أرتوى، استنفدنا كل طاقة ممكنة فى جسدينا وروحينا، كان يتحسسنى

ويضمنى، كما لو كان يضم آلهة مقدسة، وكنت كعروس صغيرة فى ليلتها الأولى مع حبيبها الأثير، لم أشعر بشعور كهذا الذى عشته الآن من قبل أبداً، بت أشك أننى تزوجت وعاشرت رجلا قبل هذه اللحظات؟ إذ اكتشفت كل تلك الطاقة الكامنة المختبئة فى جسدى، جسدى الذى استنطقته بكل اللغات الممكنة حتى لغة الغناء، فغنينا معاً أغنية عشق طويلة أمتعتنا وأسكرتنا حتى الانتشاء، إذن هذا هو العشق، وهذا هو الغرام الذى لم أعرفه من قبل طوال حياتى، هذا هو الرجل الذى انتظرته منذ آلاف السنين، وهذا هو الجسد الآخر المدفون فى جسدى ينهض من رقاده ويستفيق فأكتشف وجوده، واكتشف معه المرأة الأخرى التى هى أنا، المرأة المجهولة التى لم أعرفها من قبل.

اعتدلت جالسة فى الفراش، سحبت المفرش الأبيض على جسدى لأتغطى. كان يوسف مستلقيا على ظهره عاريا

تماماً يحدق فى السقف.

مر بأنامله على سلسلة عمودى الفقرى وقال متسائلاً:

كم مرة سنفعل ذلك معا بالطريقة ذاتها؟

لم أرد، كنت أفكر فى صالح ونيللى وزوجها الدكتور إبراهيم، كنت متوجسة وداخلنى شعور بضرورة العودة إلى الفندق سريعاً.

لماذا لا تجيبين؟ سألنى.

قلت دون أن أغير من جلستى وأنا أحاول لم شعرى بيدى وإبعاده عن وجهى إلى الخلف:

لا أعرف يا يوسف. لماذا تسأل ذلك الآن؟! أظن أننا لن نفعل ما فعلناه الآن مرة أخرى، لأننى سأسافر بعد أيام قليلة.

اعتدل فى جلسته ومسد بأصباعه خصلات شعره المنسدلة على جبينه، ثم لامس كتفى العارى بيده والتصق بى، بينما راح ينظر إلى قطعة الحجر المعلقة فى صدرى

وقال:

لا تفكرى هكذا.. لا تفكرى أفكار الشرنقة إياها.

ثم أشار بيده إلى المرآه الفسيحة المثبتة أمامنا على الخزانة وقال:

انظرى كم نحن منسجمان، متوائمان، بمرور الوقت سنزداد تشابها، سيقول الناس عنا إننا توأمان، خرجا من رحم واحد ما رأيك؟

نظرت فى المرآه، فى الحقيقة لم أجد تشابهاً، يوسف فتى وسيم يتفجر وجهه بحيوية الشباب، أما أنا فثمت تجاعيد خفيفة حول عينى، وشحوب فى بشرتى السمراء، عيناه واسعتان داكنتان، وعيناى ضيقتان نوعا لونهما عسلى فاتح تظللهما هالات داكنة، تأملت فمى، أنفى، تجاعيد رقبتى الخفيفة وتنهدت.

قطع صوته استرسالى فى تأمل ملامحنا المنعكسة على

المرآة، والمقارنة التى أعقدها بينهما، بينى وبين نفسى قال:

عندما نتزوج سآتى بمصور محترف فنان ليصورنا كما نحن الآن فى المرآة بالضبط، فقط سأضع فوق رأسك إكليلاً من زهور الياسمين، وستكون هذه صورة زفافنا التذكارية، التى سنعلقها فى غرفه الاستقبال.

نتزوج؟! تساءلت بدهشة واستغراب. واستطردت متسائلة:

لا أعرف كيف تفكر يا يوسف؟! ما الذى يدور برأسك؟! أنت تتعامل مع الحياة والأمور ببساطة غريبة، نحن لم نتعرف إلى بعضنا إلا منذ وقت قليل. أنت صغير السن حقا، لكنك لست نزقاً ولا مندفعاً على ما أظن وأتصور.

أسقط الملاءة عن جسدى بهدوء فصرت مثله عارية تماماً. نظر إلى جسدى وقال:

أعرف أنك تفكرين على هذا النحو. الآن. وقبل الدخول

فى أية مناقشة تعالى نخلق أبجدية مشتركة بيننا حتى نستطيع النقاش، الاتفاق أو الاختلاف.

ثم رفع إصبعه إلى شعره وسألنى:

ما هذا؟

شعر!

وما هذه؟

عين!

وما هذا؟

أنف!

وهذا؟ وهو يشير إلى عورته!

صعقت من سؤاله، لم أرد عليه بالطبع، واصل كلامه بانفعال:

طبعا لن تسميه، لن تسمى ما لم تتعودى على البوح باسمه. لن تنطقى اسم قدس الأقداس المجلل بالأسرار، الذى

عبدناه ذات يوم ومازلنا عبيدا له، سر تخلفنا وانحطاطنا، مبعث فصامنا الاجتماعى وجبننا الأخلاقى، أخلصنا له من الليل إلى الليل حتى التهم نهاراتنا، وغيب شمس حضاراتنا، فسقطت بغداد والقاهرة، وراحت الأندلس كلها، كان الغزاة على الأبواب ونحن لا هون معه، لا يشغلنا عنه فى الدنيا شاغل، هذا يا سيدتى اسمه..

وضعت يدى على فمه بسرعة قبل أن ينطق، وأنا أقول له:

أرجوك، كف عن الكلام بهذه الطريقة. أنت لا تفهم وضعى وظروفى، وتتعامل مع الحياة بفلسفتك الخاصة. الحياة شئ مختلف عن الأفكار يا يوسف، الكلام شئ والفعل شئ آخر... و..

قاطعنى بسرعة وقال بحماس:

هذه هى مشكلتنا بالضبط، لا علاقة للأفكار، لا علاقة

للفلسفة بحياتنا؛ لأننا لا نفكر، لا نتخيل السؤال، نعيش بأفكار من سبقونا، بأفكار القطيع، قطيع قديم هزيل لا يسمن ولا يغنى من جوع. لقد شرحت لك كيف انتظرتك منذ آلاف السنين وأنت كذلك، وها قد تلاقينا وامتزجنا امتزاج الروح بالروح، والجسد بالجسد. أنت لم تأتى هنا بالصدفة، وأنا لم أعمل فى هذا الفندق صدفة، وعشقنا لم يكن وليد الصدفة. لقد كدت أترك العمل فى هذا الفندق أربع مرات، كان يبقينى سبب واه، فأستمر فى عملى، وعندما رأيتك فهمت لماذا بقيت فى هذا المكان، وأى شئ بداخلى كان يدفعنى إلى انتظارك.

أمسكنى من كتفى ونظر إلى بجد، ثم استطرد قائلاً:

هل تظنين أنك المرأة الأولى التى اهتمت بى ووقعت فى غرامى، لقد مرت على عشرات النساء وأنا أعمل فى هذا المكان، نساء من جميع أنحاء الأرض، شقراوات، سمراوات، فتيات صغيرات، ونساء ناضجات كثمار الصيف المشتهى

قطافها. مرة جاءتنى شابة سويدية جميلة، قالت لى وهى تغادر المطعم بعد العشاء إنها تتمنى شيئا واحداً: أن تقبلنى، ولا شئ آخر، لكنى لم أتركها تقبلنى بالطبع.

أعرف أننى وسيم يا هاجر، تشتهينى النساء، لقد عرفت نساء قبلك، بل اغتصبتنى نساء فى مطلع شبابى، لكنى لم أعرف امرأة أحببتها غيرك، وأنت لم تعرفى رجلا غيرى. أرجوك اخرجى من الشرنقة، أقولها لك مرة أخرى.

لا أعرف ماذا أقول له، وهو يطلب منى المستحيل، يطلب أن أتزوجه، أشعر وكأن سطلا من الماء البارد قد صب على رأسى. لقد وقعت فى حبائل شاب غريب، ربما كان مريضا نفسياً، أعرف أن هناك مرضا نفسياً يجعل الشبان يقعون فى غرام نساء بعمر أمهاتهم، وهو يتيم الأم منذ زمن بعيد، ربما كان واحداً من هؤلاء المرضى. لكن ماذا عن حالتى؟! ألست مغرمة به أيضا؟!.. ألست مفتونة

بشبابه منذ اللحظة الأولى التى رأيته فيها؟!.. لوهلة شعرت أن من الممكن أن يغتالنى أو يقتلنى لو قلت له لا واضحة، صريحة، مباشرة على أن أختار كيف أقولها.

تصورت لو قلت لصالح إننى سأتزوج نادلا فى فندق، لو عرفت نيللى والدكتور إبراهيم، وزملائى فى العمل، وجيرانى فى السكن، وأهلى، وأقاربى، ماذا سأسمع: خسئت، تفوه، مجنونة، عجوز متصابية فقدت عقلها فى آخر زمانها من شدة الكبت الذى عاشته بعد وفاة زوجها لا تراعى مركز ابنها ولا مشاعره، ولا سمعتها. ولية مخها خف وطار، مبتذلة.

آه يا يوسف، قلت وأنا أزفر بشدة.

أعرف ما الذى يشغل بالك؛ تفكرين بمنطق القابع فى الشرنقة، المغاف بخيوط الأكاذيب والأفكار والأوهام المصنوعة والمختلقة التى تكبله. أنت تنتمين لعالم الأكاذيب،

التى لفرط ما تداولناها وتعاملنا معها بتنا نظن أنها حقائق، لكنك معذورة، فكم من الوقت أضاعت البشرية حتى أقتنعت أن الأرض تدور حول الشمس، وأنها كروية وليست مسطحة؟

أنت تنتمين إلى الأكاذيب ولا تنتمين إلى نفسك. أنت تفكرين فى ابنك ومركزه، وظيفتك وصورتك أمام الناس. اسمعى أنا أعمل نادلا، لكنى تخرجت فى الجامعة بعد أن درست الفلسفة، طظ فى الفلسفة، ما الفلسفة؟!.. أوهام وأكاذيب طالما أنها لا تغير حياة الناس ولا تفعل فيهم فعلها، مادامت بقيت فى أروقة الجامعات حبراً على ورق يلوكه الطلاب كلاماً على ألسنتهم ولا يقترب بأى شكل من أفعالهم. عندما كنت أذهب إلى الجامعة وأشاهد الأساتذة يتخبط كل واحد منهم فى خيوطها كنت أضحك، لأن الخروج منها ممكن ببساطة. يكفى تقطيع هذه الخيوط الواهية للطيران، بل

للتحليق عالياً، هل تظنين أنى سأشتغل بالفلسفة؟. أبداً ورثت عن أبى قطعة أرض فى الجبل، قطعة صغيرة سأبنى على جزء منها بيتا صغيراً نعيش معاً فيه، ونقوم بزراعة الجزء الباقى.

ستكون حياتنا جميلة يا هاجر، سنكون كائنات حقيقة خارج شرنقات الأوهام التى يجبروننا على الحياة فيها. لن يكون لدينا مذياع ولا تليفزيون، ولن نقرأ صحافتهم الوسخة، سنكتفى بقراءة لوحات الطبيعة كل يوم، ونستمع إلى أصوات الكائنات وصوتى روحينا اللتين يريدون خنقهما وقتلهما. لا تدعى الأوهام تفترسنا والوقت يسرقنا، كونى واقعية، حقيقية يا هاجر.

تنهدت، كنت مندهشة؛ إذ اكتشفت كم هو صادق، حالم، مثالى، يتخيل أشياء مستحيلة الحدوث، وينسى اعتبارات كثيرة فى الحياة، وفى أى عالم نحن نعيش.

قالت بهدوء:

أنت خيالى خالص يا يوسف، تتصور أنى ببساطة أستطيع التخلى عن صالح وتركه لأعيش معك، صالح ليس لديه أحد فى الحياة غيرى، صحيح أنه على وشك الزواج. لكنى أمه ومستحيل أن أتركه، مهما كنت أحبك. لا يمكن أن أكون أنانية لا تهمنى إلا رغباتى وسعادتى.

إذن، عندما يتزوج دعيه يأتى بزوجته ليعيشا معنا. قال.

"يا ربى: أى طفل كبير هذا الذى ينطق الآن؟! إنه لا يفهم!" قلت لنفسى ثم ابتسمت وقبلته فى جبينه وأنا أقول مبتسمة:

مستحيلة يا يوسف أفكارك!، أنت خيالى جدا.

قاطعنى بضيق:

إذن ما تصورك عن المستقبل، لقد سألتك عما ستفعلينه خلال الشهر المقبل.

لا أعرف. أجبته وكنت أعرف بالطبع.

قال وهو يكز على أسنانه ويعقد ما بين حاجبيه:

إذن لماذا جئت؟. لماذا فعلنا ما فعلناه معا؟ أنت غير جادة إذن، جئت لتتسلى، لتؤكدى لنفسك أنك مازلت مرغوبة من الرجال، علىرغم عمرك، وعلى رغم كل شئ ترغبين فى قضاء نزوة عابرة تستكملين بها متعة السفر إلى هذا البلد. تخوضين مغامرة مع شاب صغير قد لا يحدث لك مرة أخرى.

فار دمى، صعقتنى وقاحته وقدرته على التجريح، شعرت بإهانة لا حد لها " كيف يجرؤ هذا الغز على مخاطبتى بهذه الطريقة؟!"؟. وجدتنى رغما عنى، ودون أن أتمالك نفسى، أرفع يدى بسرعة، وأصفعه على وجهه صفعة قوية لخصت كل رد به عليه.

نظر إلى بهدوء. قام بسرعة وألقى إلى بملابسى ثم قال:

ارتدى ملابسك.. سأذهب لأحضر سيارة تعود بك إلى الفندق. ارتجفت، شعرت أننى سأذهب فى إغماءة طويلة لن أعود منها مرة أخرى، كيف صفعته على هذا النحو يا إلهى، وقفت خلفه بينما كان يدخل نفسه فى السروال، ألقيت برأسى على ظهره وطوقته بذراعى وأخذت أقبل كتفه المزغب زغبا خفيفا وأهمس له:

يوسف.. اغفر لى ذلك، لم أكن أقصده بالقطع، لكنك كنت قاسياً فظاً جارحا لى. لا تعذبنى أرجوك، وحاول تفهم وضعى وموقفى.

أبعدنى عنه وصرخ فى انفعال:

ماذا تظنيننى؟. زير نساء "دون جوان" أتصيد كل يوم امرأة؟ هل تحلمين أننى سأبقى عاشقا ولهانا يرسل لك الخطابات كل أسبوع بعد أن تسافرى، وينتظر أن تحملك الصدفة إليه مرة أخرى: أنا لن أذهب إليك أبداً، لا أركب

طائرات، وسأركب السيارة لآخر مرة فى حياتى عندما أعود إلى الجبل لأزرع أرضى. أبقى داخل شرنقتك يا سيدتى وتعفنى فيها كما تشائين حتى تفنى وتندثرى فى ظلام خيوطها الحريرية الناعمة.

أكمل ارتداء ملابسه، ثم مشى خارج الحجرة مسرعا وسمعته يصفق باب البيت الخارجى بشدة.

رحت أرتدى ملابسى كالمجنونة، وأسرح شعرى دون أن أنظر فى المرآة. كنت مضطربة للغاية، أشبه بطير صغير وقع فى فخ لا يعرف كيف يخرج منه، خرجت إلى ردهة البيت وجلست على الأريكة أنتظر: فكرت فى إشعال سيجارة، لكنى لم أفعل. عاد بعد عشر دقائق، دخل دون أن ينطق بأى شئ سوى:

السيارة تنتظرك.

اقتربت منه، قبلت رأسه، قبلت يديه، ضممته إلى

صدرى بشدة، لكنى كنت أضم تمثالا جميلاً من الصخر الصلد.

عند وصولى إلى الفندق، صعدت إلى غرفتى مباشرة، فتحت الباب، فوجدت صالحا ينهى مكالمة هاتفية، وما أن رآنى حتى هتف:

ماما! قلقت عليك خالص، مستحيل أنك خرجت وأنت ساخنة؟ هل كنت فى السوق؟

روحى طلعت من قعودى وحدى فى الفندق، فقلت أخرج وأتمشى فى البلد ساعة أو ساعتين.

بذلت جهدا كبيرا لأدارى كذبى، وأنا أقول له هذا. واصل دهشته وعاد يقول لى:

لكن شكلك مرهق يا ماما. ماما! ها ها ها.. انت معلقة حجر بفتلة فى صدرك؟! ها ها ها.. أنت "هيبز" يا ماما. ها ها ها.. عاملة وكأنك عيلة من عيال "البانكس"؟!.. ها ها ها

ارتبكت ووجدتنى أضحك مثله دون شعور منى، وأرفع بيدى ما أهداه لى يوسف، ذلك الحجر الصغير المدلى على صدرى. كذبت مرة أخرى، وأخبرته أنى التقيت رجلا فى المقهى الذى جلست فيه بالسوق قال لى إنه ساحر وقرأ لى الطالع، ثم أعطانى هذه التعويذة التى تجلب الحظ والخير، وتبعد الشر عنى، فعلقتها فى رقبتى.

شغل نصب واحتيال، الرجل ظن أنك سائحة من السياح الأجانب. عموما، البلد هنا سياحية جداً، والناس فيها شطار جداً، عندهم فن فى أساليب اجتذاب السياح وأخذ فلوسهم بأية طريقة. لكن كم أخذ منك؟

زفرت بحرارة: كنت لا أريد الاستمرار فى الحوار، والاختلاء بنفسى فقلت بضيق.

لم يأخذ شيئا يا صالح.

ابتسم، وبدا غير مصدق أن الرجل لم يأخذ شيئا، لكنه لم

يجادل كثيرا فى الموضوع وقال:

طيب على أية حال اخلعى الحجر العجيب من رقبتك وغيرى هدومك، ونامى ساعة، لأننا سنسهر سهرة كبيرة فى الليل.. هل أكلت يا ماما؟

طبعا: أكلت سندوتشات سريعة. قلت.

طيب: أنا نازل البلد فى جولة مع الدكتور إبراهيم. حاولى أن تكونى مستعدة للخروج فى حدود الساعة السابعة. قال:

طيب.

خرج صالح أخيرا، بعد أن حكى لى عن المدينة الأثرية التى زارها، قال إن الآثار فيها عادية ومهدمة كالملعب الرومانى بالإسكندرية، لكن المكان جميل جدا والجبل رائع، وأضاف أنه فاتح الدكتور إبراهيم فى الزواج من ابنته، وكان الرجل مرحباً جداً، وأنهما اتفقا على أن يلتقى الفتاة عدة

مرات قبل إعلان الخطوبة رسميا.

خلعت ملابسى بسرعة، ألقيت بنفسى تحت رشاش الماء فى الحمام وسرعان ما خرجت فألقيت بنفسى مرة أخرى على السرير لأنام.

لم أدر كم من الوقت مر منذ نومى بعد خروجى من الحمام. فقد سقطت فى بئر من النعاس لم أشعر معه بأى شئ، قمت متثاقلة وشمس الغروب توشك على الاختفاء تقريبا. رحت أسترجع أحداث اليوم وما جرى لى مع يوسف، وكلامه عن الشرنقة والجينات، بدا لى الأمر أشبه بمشهد من مشاهد فيلم سينمائى، أو حلم غريب. لم أكن مصدقة لما جرى بينى وبين هذا الشاب، وكنت مندهشة لسرعة وتواتر الأحداث التى جمعتنى به، لكنى على رغم ذلك كنت أشعر بسكينة روحية غريبة تسكننى وتشملنى، وبدأت آلام جسدى التى كنت أعانى منها منذ الليلة الفائتة وحتى الصباح وكأنها

لم تكن. لم أكن سعيدة ولا حزينة فى تلك اللحظات، لكنى كنت كأننى فى حالة انعدام الوزن، التى يقال عنها، أشعر أننى خارج المكان، خارج الزمان.

ارتديت فستان السهرة المخملى الأسود، ذا الصدر والأكمام المنسوجة من المخرمات الرقيقة، لكنى لم أخلع تعويذة يوسف من صدرى؛ فبدت مكببة بعض الشئ تحت قماش الفستان، لممت شعرى وعقصته إلى الخلف بشريط من الحرير الأسود، ثم تعطرت ونزلت إلى صالة الاستقبال بالفندق. فتحت حقيبتى الصغيرة وأخرجت علبة سجائرى والولاعة، طلبت قهوة مغلية، أشعلت سيجارة وسحبت منها نفسين، فلما وجدت أن لا طعم لها فى فمى أطفأتها بضيق.

لم أر يوسف هذا المساء، فقد جاء صالح بعد قليل، ثم خرجنا من الفندق مع الدكتور إبراهيم وزوجته، وانضم إلينا أناس آخرون، أعضاء فى المؤتمر لا أعرفهم؛ تناول الجميع

العشاء فى مطعم شهير يقدم الوجبات المحلية فى إطار فولكلورى موسيقى غنائى راقص.

عدنا إلى الفندق قبل منتصف الليل بقليل، لم أكن مستريحة ولا متضايقة، كنت موجودة وغير موجودة بين الناس. أمضيت السهرة أستمع إلى نظريات نيللى عن أنواع الطهى والأطعمة فى البلاد التى زارتها، وأحب الأكلات إلى نفسها. أبدى الدكتور إبراهيم أكثر من مرة اهتمامه بى، وعلق على ارتدائى الأسود بقوله إنه لا يحب اللون الأسود أبداً، ويكره أن ترتديه النساء، لكنها من المرات المعدودة التى يجد فيها امرأة يليق بها ارتداء الأسود. شكرته دون اقتناع برأيه بالطبع. فأنا أعرف نساء كثيرات يبدون فاتنات فى الأسود.

بينما كنا نهم بدخول الفندق، اقترح الدكتور إبراهيم أن نذهب جميعا إلى البار ونشرب كأسا من "الشمبانيا" كدت

أعتذر لرغبتى فى النوم، لكنه اوقفنى إذ قال إن هناك مفاجأة ولابد أن أبقى معهم وأحضرها.

عندما دلفنا إلى البار كانت أضواؤه خافتة، وكان رواده قليلين، اختار الدكتور إبراهيم طاولة لا تبعد كثيرا عن مكان وقوف الساقى، حيث يجلس البعض على الكراسى العاليه التى أمامه يحتسون كؤوسهم. لما هممت بالجلوس على المقعد لمحته واقفاً يصب نبيذاً فى كأس لزبون من الزبائن. إنه يوسف، يوسف الذى لم أتوقع رؤيته فى هذا الوقت من الليل أبداً.

غاص قلبى بداخلى، اضطربت سقطت حقيبة يدى الحريرية الصغيرة على الأرض رغما عنى، فانحنى الدكتور إبراهيم، الذى كان يشرع بالجلوس إلى جوارى، والتقط الحقيبة فى اللحظة التى كنت أحاول رفعها، سلمها لى، تحسس يدى بحركة لا لزوم لها وهو يغمز لى بعينه ويبتسم.

لا، لا أريد أن أبقى فى هذا المكان، لا أريد أن أكون فى مكان واحد مع يوسف، لن أتمالك نفسى، لن أكون على سجيتى. ما هذه المفاجآت فى آخر الليل يا ربى؟ لا أريد مشاكل من أى نوع، ولا أرغب فى أن يلحظ أحد اضطرابى.

قال صالح فجأة وهو ينظر إلى فى قلق:

ماما.. مالك عماله تنهجى؟

أبدا يا حبيبى أنا متضايقة من الحر بعض الشئ. قلت.

غريبة.. الجو لطيف جدا، لكن عموما استريحى "الشمبانيا" منعشة جداً.

أخيرا جاء يوسف، وقف أمام الطاولة ولم ينظر إلى، وكأنه لا يرانى، ثم قال محيياً الجميع:

مساء الخير. وابتسم بوقار.

"شمبانيا" من فضلك. رد الدكتور إبراهيم.

أحنى رأسه ثم سجل الطلب فى الفاتورة ومضى.

بعد دقائق عاد حاملاً زجاجة الشمبانيا فى سطل ملئ بقطع الثلج وأربعة أكواب فارغة، وضع أمام كل واحد منا واحد منها، ثم وقف بينى وبين الدكتور إبراهيم، الذى قال بينما كان يوسف يفتح سدادة الزجاجة.

المفاجأة هى أننا نشرب نخب اليوبيل الفضى لزواجنا أنا ونيللى.

ثم (بق).. طير يوسف فلينة الزجاجة، وراح يصب السائل الفوار فى كؤوسنا جميعاً، ثم أعاد الزجاجة إلى مكانها فى دلو االثلج الصغير.

صاح صالح بمرح:

عقبال اليوبيل الذهبى يا دكتور، أنت ومدام نيللى، فى صحة الزواج السعيد.

رفعت كأسى معهم، واغتصبت ابتسامة، بينما رحت أتابع بنظراتى يوسف، الذى كان قد عاد إلى مكانه خلف

البار، لاحظت أنه يتجنب النظر نحو طاولتنا. لكنى كنت أميز على الضوء الشحيح للمكان، عينيه الملتمعتين، والحركة العصبية لفكيه إذ يضغط أحدهما على الاخر. "انظر يا يوسف أرجوك"! قلت لنفسى متمنية أن يفعلها ولو مرة واحدة، " انظر إلى لأعرف أنك تحبنى ولن تنسانى، مثلما أحبك ولن أنساك أبداً. لا تكن قاسياً. هكذا!" لكن يوسف لم تحد نظراته عما بين يديه من زجاجات وأكواب، ولم ينظر إلى ناحيتنا أبداً، ثم ظل منشغلاً مع زبون جاء وجلس أمامه وبدا كأنه معتاد على التعامل معه إذ راحا يتضاحكان. لكنه كان متوتراً قليلاً، فقد أخذ يعقد حاجبيه بين الحين والحين.

قدم لى الدكتور إبراهيم سيجارة من علبته، وبحث عن الكبريت فلم يجده، أخرجت ولاعتى من الحقيبة وأشعلت سيجارته ثم سيجارتى. سحب نفسا وقال إنه لا يحب الولاعات. تركت سيجارتى مشتعلة بين أصابعى لفترة قبل

أن أبدأ فى سحب دخانها وابتلاعه بعصبية.

يسألنا صالح إن كنا نرغب فى "شمبانيا" أخرى، لكن الجميع ينفون رغبتهم فى ذلك.

انتهز صالح فرصة انشغالى مع نيللى والدكتور إبراهيم بالكلام، وانسحب بلطف، ثم رأيته يطلب الفاتورة من يوسف ويدفع الحساب. لابد أنه ترك له مبلغا من الفلوس كإكرامية. يتحادثان قليلاً، ثم يعود صالح إلى كرسيه ويقول:

الولد البارمان ظريف جدا، أخذ الفلوس منى ناقصة حوالى ربع دولار. هو نفسه الشغال فى المطعم؛ لأن الفندق صغير جداً، وواضح أن العمالة محدودة فيه.

أفتت نيللى بسرعة:

أصل البلد سياحية يا جماعة، وحركة بسيطة كحركة الجرسون، تكسب الزبون، وتجعله يرجع للمكان مرة واثنين وثلاثا، والفندق فعلا صغير. اكتشفت أن موظف الاستقبال

هو صاحبه.

وافق الدكتور إبراهيم على رأى زوجته، وأعلن صالح أن المسألة لا تخلو من جانب شخصى أيضاً، فكل إنسان وذوقه، لأنه قابل فى البلد أيضا جرسونات فى منتهى قلة الذوق. لم أقل شيئاً ولم أعلق بالطبع. ماذا أقول؟

قال صالح: ما رأيكم.. نروح ننام؟

لا.. لا أريد الذهاب ومغادرة المكان. أنا مستعدة للبقاء هنا حتى الصباح، حتى سماع شدو البلبل وتغريد الطيور. هذا كل ما تبقى لى: الجلوس والنظر إلى يوسف. لابد أنه يظل هنا حتى موعد إغلاق البار.

قلت لصالح:

اتركنا ساعة نتكلم مع بعضنا.. الليل طويل.

دهش صالح لموقفى، وهو الذى رآنى وأنا أتثاءب عند دخولنا الفندق، ويدرك تماماً مدى كراهيتى للسهر، والجلوس

فى الأماكن العامة، ويعلم أنها المرة الأولى فى حياتى، التى أجلس اثناءها فى مكان كهذا.

غمز الدكتور إبراهيم بعينه لى مرة أخرى وهو يبتسم، فشعرت بغيظ، أما صالح فلم يعلق، ولكنى شعرت بارتباكه من موقفى بعض الشئ، وهو يقول:

طيب حسب رغبتكم يا جماعة.

تحمس الدكتور إبراهيم لرأيى وقال:

إن الجلسة ظريفة ولا داعى للاستعجال، لكن بشرط أن نشرب شيئا آخر، أقترح "الويسكى" لأن "الشمبانيا" خفيفة كما "البيبسى كولا" ولا تأثير فعالاً لها.

جاء يوسف "بالويسكى" الذى طلبه الدكتور. صب الكؤوس وشربت، رأسى يدور، وجسدى فى حالة إسترخاء رحت أتكلم كثيراً. حكيت عن صالح عندما كان طفلاً صغيراً، وعن القطة التى كان يحبها وينيمها إلى جانبه فى

الفراش، وكيف أن جارتنا السمينة جداً جاءت لزيارتنا ذات يوم وجلست فوقها دون أن تشعر وفطستها.

انتعشت ذاكرتى على نحو غريب، وشعرت بمرح لا أدرى سببه، فرحت أقص عليهم بعضاً من المواقف الطريفة التى جرت لى فى الحياة. قصصت عليهم حكاية المرة الأولى التى تعاملت فيها مع المصاعد الكهربائية فدخلت المصعد ولم أضغط على زر الصعود، وظللت أنتظر صعوده حوالى ربع الساعة دون جدوى.

كانوا يضحكون جميعاً ويعلقون على كلامى، وبدا الدكتور إبراهيم أكثرهم تجاوباً معى وهو يصب فى كأسى كلما فرغ. فجأة سألتنى نيللى:

لكن بصراحة، لماذا لم تتزوجى مرة أخرى بعد وفاة زوجك؟

فاجأتنى بسؤالها، لم أكن أتوقعه فى مثل هذه اللحظات:"

لماذا تعيدنى هذه المرأة إلى تلك السيرة النكدة الآن؟!" نظرت إلى وجوههم جميعاً، استنجدت بصالح عله يقول شيئاً يسعفنى به. نظرت إلى يوسف الذى لا ينظر نحوى أبداً، انكسر صوتى وأنا أقول:

هذه المسألة يطول شرحها.. كل شئ قسمة ونصيب.

بدت نيللى كما لو كانت محرجة؛ إذ اكتشفت ضيقى بسؤالها فحاولت أن تعتذر بلطف قائلة:

قليل من النساء ذكيات بحيث يكتشفن الأضرار السبعة للزواج.

ضحك زوجها وعلق بدوره قائلاً:

وعلى رغم اكتشافك لهذه الأضرار يا حبيبتى، أنت متمسكة بالزواج جداً، متمسكة به لمدة خمس وعشرين سنة.

ضحك الجميع مرة أخرى، وافتعلت ضحكة مجاراة لهم. كنت أتطلع إلى يوسف، لكنه لم يكن ينظر إلى أبداً، وكأنى

غير موجودة فى المكان على الإطلاق، وكأننى لم أكن معه فى صباح اليوم المنتهى منذ قليل.

أخذ صالح يتثاءب ويبدى رغبته فى أن نغادر المكان لننام، أثناء ذلك شعرت بفخذ الدكتور إبراهيم تلامس فخذى!.

يوم شيار

(١)

عند استيقاظها فى الصباح أخبرها ابنها، أنهم سيغادورن المدينة صبيحة اليوم التالى، وسيرحلون إلى مدينة أخرى لزيارتها، وتفقد معالمها، والمبيت فيها ليلة، يعودون بعدها لركوب الطائرة من المطار إلى القاهرة.

أشار عليها أن تذهب إلى السوق، وقال لها إنها تستطيع التسوق فى المساء؛ لأنها ستكون بمفردها، فالدكتور إبراهيم وزوجته سيتناولان العشاء لدى أصدقاء لهما من المصريين المقيمين فى البلد، أما هو فسيخرج للقاء بعض زملائه فى المؤتمر.

قالت لصالح:

لكن لو رحت إلى السوق بعد الإفطار، أروح وحدى بدون نيللى، حتى أتصرف بحريتى، وأشترى حاجاتى بهدوء.

طيب على كيفك، لكن ساومى فى الأسعار مع التجار؛ لأنى عارفك يا ماما، منتهى الخيبة فى الشراء. قال.

اسكت يا واد، بص لحالك لأنك آخر واحد يتكلم عن الشطارة والخيبة فى الشراء والبيع. راحت تضحك وتقبله. طلب منها أن يذهبا ليتناولا الإفطار فى المطعم، لكنها اعتذرت وتعللت بشعورها بالإرهاق والكسل بعد سهرة الليلة الماضية، وإضافة إلى حاجتها لمزيد من الوقت، حتى تقوم بكامل طقوسها الصباحية من استحمام وتصفيف لشعرها وإعداد لملابسها قبل الخروج. قبلها وغادر الغرفة، سحبت عليها الغطاء ونامت من جديد، لكنه كان نوما قلقاً متقطعاً، قامت بعده واستحمت، ثم ارتدت سروالا أسود من القطن وقميصاً بنقوش وردية فاتحة، وسارعت بالنزول إلى المطعم لتناول إفطارها. جاء نادل زميل ليوسف وسألها إن كانت ترغب فى شاى أم قهوة. ظنت أن يوسف موجود لكنه

مشغول بأمر من الأمور وسيظهر بعد قليل.

كانت خطتها أن تحادثه عندما تراه بهدوء، فتشرح له موقفها، ثم تعطيه عنوانها وتودعه بشكل طيب، فلا يصح أن يفترقا على النحو الذى هما فيه الآن.

أفطرت دون شهية، كانت تشعر بصداع فى رأسها وببعض الغثيان، اكتفت بقطعة جبن مع الخبز، وفنجانين من القهوة. كانت تتلكأ أثناء أكلها وشربها، لتبقى أطول فترة ممكنة فى المطعم، على أمل ظهور يوسف، لكنه لم يظهر أبداً، خلال ذلك.

إذن هو يتعمد إلا يراها، يتجنب لقاءها. غريب أمره وا ، يتصرف كالأطفال – هكذا قالت لروحها – ومع هذا يريدها أن تظل معه فى هذا البلد وتتزوجه!. هكذا ببساطة وهدوء. لا إنه ليس طفلا، بل هو شاب مجنون فعلاً، شخص لا ينظر أمامه ولا يضع اعتباراً لأى شئ فى الحياة، وكأننا

نعيش على الأرض وحدنا، ولا بشر فى الدنيا سوانا،لا أناس نرتبط بهم ونعمل لهم حسابا؟! يا له من مجنون!.. لو كان يحبها كما يقول لتصور مدى علاقتها وارتباطها بابنها، وموقفها كأم. إنه لا يهتم إلا بنفسه، لا يهتم بوضعها فى شركة المعادن، ولا بعلاقة صالح بالدكتور إبراهيم ونيللى، هذه العلاقة التى يمكن أن تدمر وينتهى معها مشروع زواج صالح بابنتهما إلى الفشل. هل يتصور أنها ستقف عقبة أمام ابنها ومستقبله، وأنها ستقف وتقول له بهدوء: "أنا آسفة يا صالح لن أعود معك؛ لأننى قررت الزواج. أقدم لك يوسف حبيبى وزوجى المقبل، أنت تعرفه بالطبع، فهو يقدم لنا الطعام كل يوم هنا"؟

أخرجت علبة سجائرها، أشعلت سيجارة وبدأت تدخن، نظرت إلى النادل الواقف فى نهاية صالة الطعام، فكرت أن تناديه، ان تسأله عن يوسف، ولماذا لم يظهر اليوم؟ لكن ماذا

ستقول له كى لا يلحظ اهتمامها. وليبدو سؤالها عادياً، من باب الفضول لا غير؟ ستتحجج بأى شئ.

أشارت إليه فلما جاء سألته بلطف:

ممكن أسألك: هل أجد فى السوق أى كتاب عن طهى الأكلات الشعبية عندكم؟، أقصد هل تعرف عنوان مكتبة معينة، تبيع كتباً من هذا النوع؟

احتار النادل، يبدو أن معلوماته لا تختلف عن معلوماتها كثيرا فى هذا الأمر.

فكر قليلاً ثم أجابها:

أسأل الطباخ وأرد عليك.

طيب أرجو أن تسأل بسرعة، لأنى خارجة إلى السوق، وأحب أن أشترى الكتاب لأنى مسافرة بكرة إن شاء ا .

طيب.. لحظة واحدة. قال وذهب.

غاب دون أن تسأله عن يوسف. ربما دخل إلى المطبخ

وسأل الطباخ، لكن ما علاقة ذلك بيوسف؟! ولماذا اللف والدوران؟ لماذا لا تقول له مباشرة: أين زميلك يوسف؟ ولماذا لم يظهر معك خلال هذا الصباح؟ عندما يعود ستفعل هذا بوضوح.

عاد الشاب مرة أخرى، لاحظت هذه المرة وهى تنظر إليه حولا خفيفاً فى عينيه، عندما كان ينظر إليها وهو يكلمها ويقول لها إن هناك كتبا كثيرة عن الطهى الشعبى، سوف تجدها فى أية مكتبة تقابليها بوسط المدينة.

لم تسأله عن يوسف هذه المرة أيضاً، جبنت فى آخر لحظة، خرجت من المطعم وهى تجرجر قدميها شاعرة بخيبة أمل لا حد لها. قررت الذهاب إلى وسط المدينة سيرا على الأقدام، فهى تريد أن تمشى وأن تظل وحيدة تسير وتسير دون هدف لأطول فترة ممكنة، لكنها عند خروجها من المطعم، قابلت نيللى، فاقترحت عليها المرأة ذات الشعر

الأحمر أن تذهبا إلى السوق. كانت فى حالة لا ترغب معها ان ترى أحداً، ولا أن تحادث أى كائن كان، تريد أن تكون مع نفسها فقط، وأن لا تحادث إلا روحها، لذلك تذرعت بضرورة ذهابها للحلاق فى الفندق ليغسل شعرها ويصففه، وقد أصرت على ذلك على رغم ارتياب نيللى فى كلامها؛ لأنها حسب علمها، وكما قالت لها مرة لا تحبذ الذهاب إلى الحلاق. حاولت نيللى دفعها إلى تأجيل ذلك إلى ما بعد الغداء؛ حتى لا تتعطلا. لكن هاجر أصرت، وذهبت إلى السوق بمفردها.

سارت حتى منطقة الحى التجارى، تدور على المحلات تقف امام الواجهات الزجاجية، تنظر إلى المعروضات، لكنها لا ترى شيئاً، لا تركز فى أى شئ تراه، إنها طوال الوقت لا ترى غير يوسف، تكلمه، تدعوه إلى حوار هادئ متعقل تعانقه، ترجوه ان يصفح عنها، وأن يتفهم حساسية وضعها

كأم، وكإنسانة لها محيط من الناس لا يمكن أن تتركهم وتهجرهم فجأة وببساطة كما يطلب منها، لفت ودارت ومشت بين الناس، لكنها كانت وحيدة بائسة، منهارة، تعبت قدماها وأحست أنهما تورمتا بعض الشئ فقررت شراء بعض الهدايا الصغيرة لزميلاتها فى شركة المعادن والعودة إلى الفندق.رأت كتاب فن الطهى الشعبى أكثر من مرة، لكنها لم تشتره بالطبع.

ماذا تفعل لو جاء ميعاد السفر ولم تر يوسف؟ ستموت، ستجن، ستترك له خطابا مطولاً مع زميله الذى أعطاها عنوانه؛ ستشرح فى الخطاب موقفها ووجهة نظرها، ستقول له صادقة: "أنت حبى الأول والأخير يا يوسف، لا.. أنت حبيبى الوحيد. تعال نتفاهم ونجد صيغة معقولة لعلاقة طويلة ممتدة. الزواج مستحيل. أنا لا أريد أن أكون أضحوكة بين الناس، ولا أن أخسر ابنى وأجعله مسخرة لكل من هب ودب

حين يعرف الناس أن أمه تزوجت نادلا شابا فى عمره. لا أريد قلة قيمة فى آخر زمانى يا يوسف، فعلى مدى حياتى وحتى الآن عشت سيدة محترمة، محتشمة، وقورة، يشهد لها الجميع بالاستقامة والشرف" أتفهم يا يوسف؟، أتفهم يا مجنون؟. حاول أن تستوعب ذلك.ولا تكن كالطفل المتشبث بلعبة!. آه يا ربى ماذا أفعل؟

ظلت تحملها أفكار وتحطها أفكار، دون أن تحدد على وجه الدقة ما الذى ستفعله، فكرت أن العنوان معها فى الحقيقة، ربما تستطيع الذهاب إلى يوسف بسرعة فى البيت للاعتذار له عن صفعة الأمس، ثم الجلوس معه لتحادثه قليلاً، لكن أليس من المحتمل ألا يكون موجودا فى بيته خلال هذا الوقت؟. ولو. ستترك له ورقة تحت عقب الباب تخبره فيها بمجيئها وتبلغه اعتذارها؛ ليقرأها بعد عودته فى هذه الحال.

مرت لحظات، اكتشفت خلالها سخافة أفكارها العملية،

وحقيقة جبنها، فهى لن تذهب ولن تترك ورقة، ولن تكتب خطابا ترسله له مع زميله النادل، إنها جبانة فعلا، إنسانة لا تقوى على المواجهة وتحسب ألف حساب قبل الإقدام على أى تصرف، بالتالى هى لا تحسن التصرف، ولا تجيد تدبير أمورها.

طيب. عندما تعود إلى الفندق ستكلمه، فلابد أن يظهرعند الظهر ربما تأخر فى الصباح؛ لأن عمله لا يبدأ باكراً كالمعتاد بسبب سهره فى البار ليلة أمس. سوف تقول له: أريد رؤيتك يا يوسف والحديث معك لدقائق معدودات. لكن هذا مستحيل فى الفندق، لا تريد جذب الأنظار، أو إثارة انتباه الآخرين، وجدت أن الأفضل أن تتفق معه على موعد خارج الفندق.

نبتت فى رأسها فجأة فكرة شيطانية بينما كانت تسأل نفسها:

هل يوسف جاد معها بالفعل؟ كانت الفكرة أن يوسف شخص خطير، يختار ضحاياه من النساء أمثالها، ويعرض عليهم الزواج بعد التغرير بهن، وبالطبع هن يرفضن طلبه المستحيل المفاجئ. فكرة معقولة، خصوصا أنه يعمل فى مكان تمر عليه فيه أشكال وألوان من النساء، نساء يسمحن بعلاقات عابرة سريعة لا تترتب عليها التزامات من أى نوع.. لا.. هذه فكرة شيطانية بالفعل. فكرة تشبه أفلام السينما المصرية القديمة، افتراء على يوسف وتفكير أسود لا أساس له، يوسف يبدو كالملائكة، إنه إنسان مختلف، وشاب من نوع خاص.

أخيرا قررت العودة، كانت ضائعة، مهزومة، لا تدرى ماذا تفعل، قررت الصعود إلى غرفتها وترك ما اشترته اولا، ثم الاغتسال والعودة إلى المطعم لتناول الغداء مع صالح الذى اتفق معها على ذلك قبل افتراقهما عند الصباح.

(٢)

صعدت السلم إلى الطابق الثانى حيث غرفتى وصالح. الممر االواقعة على جنباته غرف النزلاء، طويل ممتد، وإضاءته ضعيفة؛ عندما بدأت فى اجتيازه كنت أشعر بسخونة جسدى وتعرقه من كثرة المشى، وبرائحة الأتربة فى أنفى، لذلك قررت أن آخذ حماماً سريعاً، وأغسل شعرى حتى أنتعش؛ فبدأت وأنا أسير مسرعة فى تحريره من العقدة المطاطية التى ألمه بها من الخلف. كنت أفكر مهمومة قبل وصولى إلى باب غرفتى بخطوات، سمعت صوت إغلاق باب إحدى الغرف، ورأيت يوسف واقفا أمامى.

يوسف، همست مبهوتة.

نظر إلى نظرته الطويلة المعهودة، "يا إلهى كم أنا ضعيفة أمامه! وكم أنت رحيم كريم معى إذ جمعتنى بيوسف أخيراً"

يوسف: هتفت مرة أخرى وأضفت:

لماذا تعاملنى هكذا يا يوسف؟! يجب أن نلتقى ونتفاهم ونتفق على الأقل على التراسل. يجب علينا الحوار عبر الخطابات، سأرسل لك خطاباً عندما أعود، حاول الرد عليه، فلنتحاور يا يوسف، الأمور ليست بالبساطة التى تتصورها.

ثم فجأة تذكرت:

ماذا كنت تفعل فى هذه الحجرة.. هه؟ سألته.

أغازل امرأة جميلة.. ما رأيك؟ قال.

لا تكن سخيفاً يا يوسف.. لا أقصد هذا، لكنى سألتك لتصورى أنك لست موجودا فى الفندق. طيب رد على كلامى بسرعة أرجوك.

كلامى انتهى يا هاجر، لا كلام آخر عندى، فكرى، كونى نفسك مرة واحدة، انتمى لروحك وثقى بها.

مسح على خدى بيده، وقبلنى بسرعة ومضى.

لا أعرف كيف أولجت المفتاح فى الباب، كيف دلفت إلى الحجرة لأرتمى على السرير شبه منهارة. "يا ربى كان مالى ويوسف! وحياتى كانت تمضى عادية طبيعية، وكنت قد وضعت يا ربى سدا منيعاً بينى وبين الرجال، فلا أراهم ولا أحسهم، ولا أتعذب بسببهم، ولكن من أين طلع لى يوسف؟!. وكيف أسقط ذلك الجدار العالى المتين، الذى فصلنى عن الجنس الآخر سنوات وسنوات؟!

قررت عدم النزول إلى المطعم، لا أريد أن أرى يوسف بمفردى سأتوتر أكثر،الأفضل أن أراه بوجود أناس معى، سأنتظر صالحاً، فهو بالطبع سيسأل عنى عندما يأتى ولا يجدنى وسيتصل بى فى الغرفة، فأنزل إليه فى المطعم ونتغدى معاً. لم أغتسل ولم أغسل شعرى، بقيت قابعة على السرير أدخن وأفكر، أدخن وأفكر "مبسوطة يا هاجر؛ لأن شابا مثل فلقه القمر وقع فى غرامك!

سعيدة لأنك قمت بمغامرة عاطفية عابرة، كالمغامرات التى يقوم بها زملاؤك الرجال فى شركة المعادن، وتسمعينهم يتهامسون عنها أثناء العمل.. هه! طيب تصورى أنك تزوجت به، وليس هناك احتمال لمشاكل مع نيللى، أو مع صالح أو معى أى إنسان آخر تعملين له حساباً، تصورى نفسك زوجة ليوسف بعد عشرين سنة. ستكونين عجوزا فوق الستين، مجعده الوجه، واهنه الجسد، بينما هو رجل فى عز رجولته، مهزلة بل مسخرة حقيقة لكل من يتفرج ولا يشترى.

"لكننى أحبه، وأتمناه، أرغب أن أكون معه إلى الأبد.. ما هذه الورطة يا ربى؟.. سيدنا محمد تزوج من السيدة خديجة، وكانت تكبره بخمس وعشرين سنة، ولم يتحدث أحد عن أية مشكلة فى ذلك. ولكن هل أنت السيدة خديجة يا هاجر؟!، حاشا "

بكيت، بكيت بحرقة لشدة غيظى وحيرتى، قلت سأشغل

نفسى بأى شئ ريثما يعود صالح، سأرتب حقيبتى وحقيبته استعداداً للرحيل وكذلك الحقيبة الصغيرة التى سنأخذها معنا عند سفرنا إلى المدينة الأخرى صباح الغد؛ أخذت أضع الملابس المتسخة والملابس التى لن نستخدمها بعد الآن فى الحقيبتين أولا، ثم الأحذية، فكُتُب صالح التى اشتراها من هذ المدينة، والهدايا التى ابتعتها؛ وبينما كنت أضع ثوبى المشمشى الذى ذهبت به إلى يوسف تذكرت ما جرى بيننا؛ لقد كان الشئ الوحيد الحقيقى الذى أبهجنى فى حياتى هو تعانقنا والتحام جسدينا، وتلك اللحظات التى امضيناها نتحادث، شعورى العارم تجاهه عندما كان يعد القهوة فى المطبخ، ثم كلامه الغريب. "يا إلهى، كيف سأتحمل كل ذلك، وأنا أجتره وحيدة لحظة بلحظة عند عودتى إلى مصر؟!"؟

أمسكت بالثوب، قبلته، تنسمت رائحة يوسف فيه، قررت ألا أغسله أبداً، ألا أرتديه بعد ذلك مطلقاً وأن أحتفظ به

للذكرى، ذكرى يوسف المستحيلة. رن جرس الهاتف. إنه صالح. سأنزل إليه حالاً.

رفعت السماعة بسرعة وقلت:

صالح.. يا ا .. أنا نازلة بسرعة لنتغدى.

هاجر.. هل عنوانى مازال معك؟

همست وأنا أرتجف من المفاجأة، إذ تبينت أنه صوت يوسف.

طبعا يا يوسف..طبعا!

هاجر سأنتظرك.. مع السلامة

يوسف.. آلو.. يوسف

كان قد أنهى المكالمة بينما كنت أناديه، وضعت السماعة وأنا أتساءل ما هذا؟! إنه الجنون نفسه، لم أصادف إنساناً غريب الأطوار فى حياتى مثل يوسف، بدأت أبتسم ثم أخذت أضحك على نحو هستيرى. المسألة تبدو لى كأنها مشهد فى

مسرحية قديمة. مشكلتى هى سهولة مباغتتى، لذلك فأنا أظن أننى حمقاء، فالحمقى وحدهم هم الذين يفاجأون، فيتصرفون برد الفعل. كنت مبهورة بالأمس من يوسف، لكن اليوم لست مبهورة. أنا فقط مدهوشة.

أخذت أضحك وأضحك، حتى فتح الباب ودخل صالح وهو يقول مستغربا:

ماما.. مالك؟ سمعتك تضحكين لوحدك.. خير إن شاء ا .

لفقت كذبة سريعة وقلت:

تصور.. كنت خارجة لأتغدى، واكتشفت أنى لابسه خف الحمام ها ها ها.

ابتسم صالح وقال:

ولا يهمك بسيطة جل من لا يسهو، لكن، وا العظيم يا ماما حضورك الرحلة معى كان مهما جداً. أنا شاعر أن

نفسيتك ممتازة، وأنك صغرت خمس سنين على الأقل. عندى شعورى أن الضحك طالع من قلبك شئ جميل وا العظيم.

تأملته بهدوء وأجبته:

شكرا يا حبيبى.. ربنا يخليك لى، ويحميك لشبابك، أمنيتى أن يصبح لك بيت وأولاد.

إن شاء ا يا ماما.. لكن بشرط ان تكونى معى فى بيت واحد.

قلت محتجة:

صالح.. أظن أننا تكلمنا فى موضوع البيت عدة مرات، سأبقى فى بيتى يا صالح. أنا كبرت وأريد أن تظل حياتى كما هى، لا أحب أن يشاركنى فيها أى إنسان، ولا أن أكون عبئا عليك، أو على زوجتك.

تردد قليلاً ثم قال:

ماما.. اسمحى لى بمفاتحتك فى موضوع، لكن أرجو أن

تردى بهدوء، أن تجاوبى بـ "نعم" أو بـ "لا" بدون عصبية أرجوك.

طيب أتكلم!

الدكتور إبراهيم كلمنى بشأن عريس لك، زميل له، وأنا أسمع عنه لكنى لا أعرفه.

بهتُ.. نظرت إليه بغيظ وقلت:

أسكت يا صالح، بلا عريس، بلا كلام فارغ.

طيب سكت، لكن أتمنى لو نناقش المسألة بالعقل لأفهم الموضوع مرة، وأن يكون عندك أى مبرر مقبول للرفض، أعط لنفسك فرصة ربما يصبح لك وجهة نظر مختلفة.

استرجعت كلامه وقلت بغضب:

هى المسألة ظل رجل ولا ظل حيط؟. أنت عارف أن موضوع الارتباط مسألة تخصنى وأنا رافضة الدخول فيه..

وا !

بالتأكيد يا ماما الموضوع يخصك. لكن اعط لنفسك فرصة. أنا موافق على أى إنسان يلائمك، إى إنسان يتم اختيارك له، فالمهم أن تكونى سعيدة، وأن تعيشى حياتك يا ماما. حرام، عمرك ضاع ومن حقك أن تعيشى وتفرحى وتسعدى بقية حياتك.

قلت لنفسى وأنا أتأمله دون أن أرد عليه: "أى واحد؟ أى واحد يا صالح؟ إذن ما رأيك فى يوسف؟ ما رأيك لو تزوجت يوسف؟ أنا لا أريد أن أكون مع إنسان آخر فى العالم غير يوسف؟ هل توافق يا صالح؟ هل توافق على زواجى من نادل يصغرنى بما يزيد على خمسة عشر عاماً؟ لا أظنك توافق على ذلك يا صالح"

لما وجدنى لا أرد عليه، حاول شرح موقفه أكثر فقال:

ماما.. فكرى فى الموضوع، أنا أحب أن تكون حياتك سعيدة، والزواج بالنسبة إليك رفقة أولا وقبل كل شئ، أنت

فى حاجة إلى رفيق إنسان ناضج يفهمك ويقدر ظروفك، يشاركك حياتك وأوقاتك، ويخرجك من وحدتك.

"لا أحد يفهمنى يا صالح غير يوسف، لم أقابل رجلا ناضجاً غيره، يوسف هو حلمى، هو كل ما أتمناه من الحياة. آه لو تفهم يا صالح ويفهم الناس كلهم. لماذا لا يفهم الناس ذلك"؟ تساءلت بينى وبين نفسى، ووجدت الإجابة: إنها شرنقة يوسف.

قلت لصالح لأنهى الحديث فى هذا الموضوع:

هيا نتغدى، أنا جعت جداً.

طيب يا ماما، لكن ا يخليك فكرى.

أنا أفكر يا صالح، لا أكف عن التفكير.

نزلنا إلى المطعم لتناول الغداء، وبينما نحن نجتاز الممشى الموصل بين الحديقة وباب المطعم، اقترح صالح أن نأخذ بعض اللقطات التذكارية فى هذا المكان الجميل، كان قد

أحضر معه من الغرفة الصوارة، بعد أن قرر أن نتصور فى المطعم والحديقة، وبهو الفندق أيضا.

التقط صالح صوراً لى، وصوراً لمدخل المطعم، ومشهدا عاماً للحديقة، وبينما كان يلتقط أحد المناظر ظهر يوسف، كان مسرعاً فى خطاه يهم بدخول المطعم؛ عندما طلب صالح منه أن يلتقط لنا معاً بعض اللقطات.

أشار صالح إلى شجرتى الكينا وقال:

تعالى هنا يا ماما، تحت الشجر، اللقطة تطلع جميلة.

تحركت ووقفت إلى جوار صالح تحت شجرة الكينا، يده على كتفى، وذراعى تحوط خاصرته، التقط يوسف الصورة بسرعة، وأعطى الصوارة لصالح، وهم بالذهاب.

ناديته دون أن أشعر:

يوسف.. تعال لأصورك مع صالح.

تقدم ووقف إلى جوار صالح، الذى شعرت بضيقه

وتأففه قليلاً،بينما لم ينطق يوسف بكلمة، وبقى إلى جوار ابنى أثناء التصوير واجماً عندما ذهب تساءل يوسف باستغراب:

أنت عرفت اسمه؟!

لم أرد وتشاغلت بإعادة آلة التصوير إلى جرابها الجلدى، ثم علقتها فى كتفى.

بقيت أنا وصالح فى الفندق حتى ذهابه إلى موعده مع زملائه، وعندما عاد كنت قد انتهيت من ترتيب الحقائب تقريباً، فأنا لا أحب تأجيل أمور من هذا النوع حتى اللحظة الأخيرة. لم أر يوسف خلال تلك الفترة أبداً، ولم أره كذلك أثناء العشاء فى المطعم. بعد العشاء اقترح صالح أن نتمشى قليلاً حول الفندق، كان الطقس ربيعياً رائعاً، والهواء نقياً منعشاً، فوافقته على الخروج والتمشية، وبينما نحن سائران أثار صالح موضوع زواجى مرة أخرى، محاولا استكمال

الكلام الذى بدأه عند الظهر.

قلت له مازحة:

طيب افترض أننى ارتبطت برجل لا يعجبك، أو برجل لا ترضى عنه ماذا ستفعل؟

مستحيل أن ترتبطى بإنسان لا يعجبنى يا ماما.

افترض يا سيدى إنه إنسان غير ملائم من وجهة نظرك

ماما عندك طريقة عجيبة فى التهرب، وقدرة غريبة على تحويل أى موضوع فى منتهى الجدية إلى تهريج!. ما قصدك بإنسان غير ملائم؟ تساءل ثم أردف قائلاً بضيق:

عنده عاهة مثلا؟ متخلف عقلياً؟ عموماً لما يكون هناك شخص حقيقى من لحم ودم، وقتها يحلها ربنا.

وجد أن لا جدوى من الاستمرار فى هذا الموضوع، فراح يحكى لى أن الدكتور إبراهيم بنى شقة لابنته فى "الفيللا" التى يمتلكها بمدينة نصر، وأن مسألة ترتيبات الزواج

ومصاريفه لن تكون فيها مشاكل، وأن من المحتمل لو جرى التفاهم بينه وبين البنت أن يتزوجا خلال الصيف القادم.

عدنا إلى الفندق، وكنت أشعر برغبة غريبة فى النوم وفى السفر بسرعة إلى مصر، لكننى كنت متشوقة أيضا إلى رؤية المدينة الأخرى التى سنزورها غدا قبل مغادرتنا البلاد فى اليوم التالى.

يوم أول

(١)

ضحكت نيللى فجأة وهى تترك ذراع زوجها التى كانت تتأبطها لتقترب من هاجر وتهمس لها:

هنا شارع البنات إياهن، تعالى نروح نتفرج ونشوف، أحب أن أعرف هل وضعهن مختلف عن مناظرهن فى الأفلام عندنا؟ تعالى نروح مع صالح وإبراهيم.

دهشت هاجر، فهذا آخر شئ تصورت سماعة من نيللى.. تساءلت: "لماذا تريد الذهاب لرؤية بنات الدعارة؟! ما الذى يجذبها لرؤية أمثال هؤلاء النسوة؟!" نيللى شخصية غريبة بالفعل، والأغرب منها زوجها وصالح اللذان يرغبان فى الفرجة أيضاً. إنها لا تجد طرافة فى رؤيتهن، وقد استغربت لأن أموراً من هذا النوع مازالت موجودة ومصرح بها فى هذه البلاد. "مسألة منحطة، لا إنسانية. مقززة"!

أعلنت رفضها لمصاحبة نيللى، وأن من المستحيل أن تحاول رؤية أشياء من هذا النوع. لكن نيللى راحت تلح عليها قائلة:

تعاملى مع المسألة ببساطة، إبراهيم قال لى إن كل واحدة تقعد على باب بيتها تنتظر الزبون. نمر ونتفرج وكأننا نتمشى؛ نوع من الفضول ليس أكثر.

ردت هاجر بحسم:

مستحيل.. مستحيل. ما الظريف فى الفرجة على نسوان فى الضياع؟! تمشى أنت مع صالح والدكتور إبراهيم، وأنا فى انتظاركم حتى ترجعوا.

طيب.. صالح يروح مع إبراهيم، ونتمشى أنا وأنت هنا حتى رجوعهما.

افترقت المرأتان عن الرجلين اللذين ذهبا معا. سارت نيللى معها تتأمل الناس وطريقتهم فى الكلام وتضحك أو تسخر أحياناً قائلة إن المدنية متخلفة جداً، وإن من المستحيل

أن تقتنع بعد رؤيتها للمدينة الأولى أن المدينتين تقعان فى بلد واحد، فهناك فرق كبير بين وضع الناس هنا، وحياة الناس فى المدينة الأولى، ومستوى الخدمات مختلف، وكذلك سلوك الناس أيضا.

"لو أن هذه الرحلة كانت بدون نيللى، لاختلفت كثيرا، كان من الممكن أن تكون أكثر بهجة وراحة للأعصاب" هكذا قالت لنفسها وهى ترد على كلام المرأة السائرة إلى جانبها وتجادلها قائلة:

الشئ نفسه موجود عندنا فى مصر، الصعيد متخلف جداًعن القاهرة، والناس هناك سلوكهم متخلف، ومستوى الخدمات ضعيف جداً.

اعترضت نيللى قائلة:

لا.. لا فى بلاد عربية كما فى الخليج الوضع مختلف تماماً وضع الناس ممتاز جداً. لما سافرت مع إبراهيم وعشنا

هناك، شعرت وكأننى فى أوروبا، بل أفضل من أوروبا؛ كل السلع متوفرة سلع من جميع أنحاء الدنيا، من الشرق ومن الغرب، ثم إن مستوى معيشة الناس مرتفع جداً. ولا يوجد فقراء أبداً. طبعاً لهم عادتهم وتقاليدهم المختلفة، هم أحرار، ما لنا وما لهم من ناحية تصرفاتهم. لا يا هاجر.. البلد هنا فظيعة.

حارت هاجر. ماذا تقول لها؟ فهى لم تسافر أبداً إلى بلد من بلاد الخليج، لم تتعامل مع أناس من تلك المنطقة عن قرب، فلا يمكنها أن تشكل موقفا منهم بالسلب أو الإيجاب، لكنها تدهش من سلوكهم فى المحلات العامة فى بلدها، ومن طريقة ارتداء نسائهم الملابس، من كميات الذهب فى سواعدهن وعلى صدورهن. تعجب لرأى نيللى فيهم، وهى التى تبدو دوما وكأنها واحدة من الأرستقراطية المصرية القديمة. شعرت أن أفكاراً كثيرة تختلط برأسها عن التقدم

والتحضر، لم تكن ترغب فى مجادلة نيللى فى مسألة لم تفكر فيها من قبل فسألتها:

لكن هل الفلوس قادرة على حل كل المعضلات؟. لو كان عندنا فى مصر فلوس بحجم فلوس السعودية أو الخليج، هل كنا استطعنا حل مشاكلنا؟ أنا لا أظن ذلك.

ردت نيللى بسرعة وهى تستوقفها أمام محل لبيع السجاد والبساط اليدوية فقالت:

طبعا..طبعا لأن تسعاً وتسعين فى المائة من مشاكلنا فى مصر سببها نقص الفلوس. ولو كان عندنا فلوس لكنا على الأقل سددنا الديون المكومة على قلوبنا.

تذكرت هاجر زميلها القديم فى شركة المعادن وكلامه عن ثروات مصر وخيراتها وسوء توزيعها وعن اللصوصية والنهب الدائم، وعصابات المرتشين والمنتفعين وتجار المخدرات والسلاح والعملة تذكرته بالخير، فهو على رغم

كل شئ وعلى رغم عنفه مع أخته، وكراهيتها هى لسلوكه مع هذه الأخت، إلا أنها لم تنس أنه علمها أشياء كثيرة، وفتح عينيها على حقائق كثيرة غابت عنها، ولم تفكر فيها قبل تعرفها عليه أبداً.

عاد صالح وإبراهيم بعد قليل. راحت نيللى تسألهما بلهفة عن نساء شارع الرذيلة. شعر صالح بقليل من الخجل والحرج؛ إذ وجد أمه تنظر إليه باستنكار، فتشاغل بخلع ربطة عنقه بحجة شعوره بتزايد حرارة الجو، بينما رد الدكتور إبراهيم:

الشارع والبنات ذكرونى بشارع الرويعى فى مصر أيام الاحتلال الإنجليزى كانت الدعارة منتشرة جداً وبعد الثورة صدر قانون بمنعها لكن ذلك لا يعنى أنها اختفت لأنها موجودة بشكل سرى وعلى مستوى كبير، خصوصا مع السياح من بلاد النفط، لكن الغريب أن تكون موجودة فى بلد

مفتوح مثل هذا البلد، الناس فيه سلوكهم متحرر إلى حد كبير مسألة غريبة فعلا!

قال صالح فجأة، مغيراً موضوع الحديث:

تعالوا ندخل إلى مطعم لنتغدى فيه ونستريح من المشى.

وافق الجميع على الفكرة، غير أن نيللى لم تتحمس كثيراً؛ إذ قالت:

المطاعم هنا منظرها لا يسر، ويبدو أن الأكل فيها سئ. يظهر أن المدينة هنا غير سياحية على الإطلاق.. لكن تعالوا نجرب.

(٢)

لم أكن معهم على الغداء إلا بجسدى تقريباً فروحى كانت مع يوسف، وعقلى أخذته أفكار شتى. هذه المدينة تحيى فى ذكريات قديمة، الناس فيها يشبهون الناس فى بلادى، وإن اختلفت سحناتهم وملامحهم وطريقتهم فى الملبس والكلام بعض الشئ.

لا أدرى لماذا صعدت من أعماق ذاكرتى مشاهد طفولتى الأولى، بينما كنت أجول فى شوارع هذه المدينة؟. لماذا تذكرت حسن الأطروش جناينى حديقة جدتى، الذى ولدت امرأته ثلاثة توائم فجاءت إلينا مع زوجها تحملهم فى قفص من القش، على رأسها ثلاثة من الصغار الرضع، يصرخون، ولا شئ يغطيهم ويحميهم من برد "طوبة" القارس إلا طرحتها السوداء. أعطتهم جدتى وقتها بعضا من ملابسى القديمة فبكيت احتجاجاً، ورحت أدب على الأرض نادبة

ضياع ملابسى وممتلكاتى وتبديدها. لم يغب عنى أبداً وجه المرأة وهى تبتسم فى أسى وخجل وهى تطيب خاطرى، ووجه جدتى وهى تنعتنى بقلة الذوق وانعدام الإنسانية وبالأنانية. مازلت حتى الآن أخجل من نفسى كلما تذكرت هذه الواقعة، وأشعر بمرارة كلما تذكرت أن ملابسى تلك التى كانت قد ضاقت على جسدى منذ زمن لم تحم الصغار من البرد، ولم تمنع عنهم غائلة الموت، فقد ماتوا جميعا بعد أسابيع قليلة وكانت جدتى تترحم عليهم وتقول: الحمد ، ربنا رحمهم من الشقاء، ورحم أمهم من عذاب تربيتهم، وحل مشكلة أكلهم وشربهم، لطف وقدر وهو العالم بأحوال العباد.

ربما انتعشت ذكرياتى لكثرة ما رأيت من شحاذين فى هذه المدينة، مرضى مجذومين، مجانين، معتوهين، مدينة تتضح بالفقر والفاقة، على رغم القصور والمبانى الجميلة التى تقع عليها العين بين الحين والحين فى المدينة الأخرى.

تذكرت شحاذى مصر لقد كثر عددهم فى السنوات الأخيرة، لكن الفرق بينهم وبين الشحاذين هنا هو أنهم يشحذون بأساليب طريفة يخترعونها بين الحين والحين.

رحت آكل بلا شهية، وأستمع إلى نيللى وهى تتأفف من رداءة الطعام. وتعلق على كل شئ. كنت أحاول تجاهلها، لكنها كانت تصر على توجيه الكلام لى، وإدارة الحوار معى.

فاجأنى صالح ونحن نشرب الشاى المعطر بالنعناع، الذى طلبناه بعد ما أكلناه من سمك إذ قال:

ماما.. أنا كلمتك عن سامية بنت الدكتور إبراهيم طبعا، وأحب أن أفتح الموضوع مع الدكتور إبراهيم ومدام نيللى فى حضورك.

طبعا طبعاً يا حبيبى، قلت

ابتسم الدكتور إبراهيم وراح يشعل سيجارة، وردت نيللى بسرعة:

من ناحيتنا كل شئ جاهز، سامية أغلى ما فى حياتنا أنا والدكتور إبراهيم، وطلباتنا معقولة جداً.

التقط زوجها طرف الخيط منها وأعلن:

شبكة وهدية فى حدود عشرة آلاف جنيه، ومهر فى حدود المبلغ نفسه، والفرح فى فندق خمسة نجوم، والباقى علينا.

لاحظت تعرق جبهة صالح، واحمرار وجنته، ازدردت ريقى وقلت:

يعنى.. فى حدود ثلاثين ألف جنيه مثلا يا دكتور.

لا أظن أنها ستقل عن ذلك. قال.

ابتسمت نيللى ابتسامة باهتة، ثم قاطعت زوجها قائلة:

على فكرة.. سامية أمنيتها فستان زفاف أبيض من باريس.

قفز إلى ذهنى مشهدنا أنا ويوسف عاريان أمام المرآة

عندما كنت فى بيته، وكلامه عن صورة زفافنا والتعرى، كدت أضحك؛ لكنى كنت أفكر مهمومة أيضاً، من أين ستأتى بهذا المبلغ الكبير، الذى طلبته نيللى وزوجها لأجل زواج صالح! "الناس افترت فعلا"! قلت لروحى: "ماذا يظنان بنا؟! أيظنان أن لدينا كنوز الملك سليمان؟!" راتبى محدود وكذلك راتب صالح، والمبلغ الضئيل الذى يصلنا من الإرث، يكفى بالكاد لتغطية نفقات معيشتنا، "ثم ما ضرورة إقامة حفل العرس فى فندق خمسة نجوم؟ وأن نأتى بفستان زفاف من باريس. كلام فارغ ونفخة لا لزوم لها"، قلت لروحى مرة أخرى وأنا مغتاظة، لكنى اغتصبت ابتسامة وأبديت موافقتى على الشروط ؛ حتى لا أتسبب فى حرج لصالح، أو أبدو كمن يحاول عرقلة إتمام الزواج.

كنا قبل الغداء قد تجولنا كثيرا فى أنحاء المدينة، وتفقدنا معالمها القليلة، معظمها جوامع أثرية قديمة، يعود بعضها إلى

زمن الفتح العربى للبلاد، وبيوت على الطراز المعمارى الإسلامى القديم، دونما أناقة أو بذخ. لا شئ يستوقف الإنسان بها سوى جمال النساء، وعيونهن الواسعة المعبرة. قيل لنا إن معظم هؤلاء جئن من بطون النساء الرومانيات اللواتى سباهن العرب عند دخولهم البلاد. فى وجوههن انكسار، ونظراتهن خجلى بلا حول ولا قوة، لسبب غير مفهوم، وعلى رغم جمالهن كن يحملن التعبير ذاته الذى ألاحظه على وجوه النساء فى مصر "سبحان ا " قلت لنفسى وأنا أتأمل واحدة كأنها نسخة، الخالق الناطق، من عمتى إنصاف، يرحمها ا .

لم أشتر شيئاً يذكر، سوى بساطة ملون بزخارف بدوية لا تزيد مساحته عن متر مربع تقريباً، أما نيللى فقد اشترت سجاتين كبيرتين، اتفقت مع صاحب المحل أن يرسلهما إلى المطار لتأخذهما معها عند سفرها إلى القاهرة.

لن يتحمس الجميع للبقاء فى هذه المدينة فترة أطول. فقررنا العودة قبل الغروب إلى المدينة التى جئنا منها ؛ حتى نحزم حقائبنا ونستريح قبل مغادرتها فى صباح اليوم التالى. وكنت، بلا شك، متحمسة أكثر من الجميع لهذه الفكرة. كنت آمل فى رؤية يوسف مرة أخرى.

يوم أهون

(١)

فتحت عينيها قبل الفجر بقليل، بعد أن نامت نوما قلقا متقطعاً زارتها خلاله أحلام وكوابيس غريبة: "جدتها تمزق أصابع يدها بسكين، وهى تتفرج على فيلم "لتوم وجيرى" فى التليفزيون. زوجها يقول لها إنه سيحضر مساء ومعه رجل سوف يشم صدرها بوشم مسجل به كل ما كتب فى الأوراق الطبية التى عثرت عليها بدرج مكتبه، والتى عرفت منها أنه كان مريضاً مرضا خطيراً لا شفاء منه، هى ويوسف فى مخاضة ضحلة واسعة من الماء الآسن العفن، يتحركان بصعوبة وهو أمامها يحاول الخروج منها، ويمد يده لها ليساعدها على المشى وعدم التعثر والوقوع فيها، لكنها لا تفلح فى الإمساك بيده، فتراه يبتعد عنها شيئا فشيئاً، ولا يرد عليها عندما تناديه وترجوه أن ينتظرها، وكأنه لا يسمعها أو

يأبه لها" أشعلت ضوء المصباح المثبت على الحائط أعلى سريرها، ونظرت إلى ساعة معصمها، ثم اطفأت الضوء بسرعة لئلا تزعج صالحاً، الذى كان يغط فى نوم عميق وقد لانت قسمات وجهه، فبدت لها طيبة، عذبة، صادقة، بريئة إلى حد لا يوصف، الساعة لم تبلغ الخامسة بعد، لكنها لا تريد مواصلة النوم، لا تريد المزيد من الأحلام والكوابيس صدرها منقبض، وأعصابها مشدودة، والقلق يفترسها، تذكرت أنه لم يبق على موعد السفر ومغادرة البلاد إلا ساعات قليلة، وهى لاتدرى إن كانت الظروف ستجود برؤية يوسف مرة آخرى قبل سفرها أم لا؟

ازاحت الغطاء عنها وقامت متسللة إلى الحمام: جلست على المرحاض بعد أن حملت مجلة من المجلات التى يأتى بها صالح كلما عاد من المؤتمر، وبدأت تتصفحها؛ أخذت تقلب فى الصفحات وتقرأ: "زوجة الرئيس ومشروع خيرى

جديد"، "آلاف الأطفال يموتون من الجوع فى الصومال بمعدل اثنين وعشرين طفلا كل ساعتين"، "لماذا يتزوج الرجال؟"، "غراميات الأسرة المالكة الإنجليزية"، "طريقة جديدة للحمية وإنقاص الوزن". ظلت تقلب الصفحات وتتفحص عناوين الموضوعات المكتوبة المصورة، دون أن تجد رغبة حقيقة فى قراءة أى منها. ألقت بالمجلة جانباً، وشدت شلال الماء، ثم قامت إلى المغسلة وقبل أن تفتح الصنوبر لتغسل وجهها وتنظف أسنانها لاحظت فى المرآة التجاعيد القليلة المرتسمة حول عينيها وشفتيها، تجاعيد لا تلحظ كثيراً، لكنها موجودة تكثر وتتأكد.

ساءلت نفسها: كم بقى لها من عمر؟ كم ستعيش من السنين بعد الآن؟ عشر سنوات؟ عشرين سنة؟ سألت نفسها أيضا: كم سنة عاشتها بالفعل فى حياتها؟ كم سنة من الحياة السعيدة الحقيقة المفعمة بالراحة والاطمئنان؟ فكرت واكتشفت

أنها لم تعش حياتها أبداً، عمرها ضاع وأيامها مضت لا طعم، بلا فرح، بلا معنى.

داخلها يأس، وعادت تسأل نفسها: " لماذا عندما يأتينى الفرح لا أفرح؟ لماذا أخاف أفرح؟!، أخاف يوسف، الصدق الوحيد فى حياتى؟! لماذا أحسب حساباً للدكتور إبراهيم ونيللى؟ بينما أنا لا أطيق نيللى ولا فتاويها؟ لماذا لا أواجهها وأقول لها الصراحة: "أنت غير محتملة يا نيللى. أنت شخصية لا تطاق"؟ كلام يوسف مقنع جداً، أنا فعلا فى الشرنقة، وكل إنسان يعيش فى شرنقته، شرنقة الأكاذيب والأوهام عن نفسه، وعن الحياة". " لكن كلام يوسف الجميل، مجرد كلام: أفكار رائعة، لكنها مجرد أفكار: الواقع مسألة مختلفة، والحياة أعقد مما يظن يوسف. لو قلت لصالح أننى أحب يوسف وأريد أن أعيش معه ما تبقى لى من العمر، وأريد الخروج من الشرنقة ماذا سيجيبنى؟ لو قلت لنيللى: يا

نيللى اخرجى من شرنقتك السخيفة، وكفى عن الادعاءات والافتعال، ماذا ستقول لى؟ لن يفهم الناس نظرية يوسف لكن لماذا فهمتها أنا، ألانى أحبه، أعشقه؟!"

بدأ نور الفجر بالظهور، وأخذ فتل البلبل ينساب فى أذانيها ناعماً، ساحراً، آسراً، ليس كمثله صوت فى البداعة والجمال حضرها وجه يوسف الجميل، خرجت من الحمام وفتحت شباك الغرفة، ووقفت تتنسم نسمات الصباح الأولى، وتنظر إلى الحديقة.

(٢)

نزلت مع صالح لتناول الفطور، بعد أن انتهيت من إعداد كل شئ تقريباً استعداداً للسفر، وجدنا نيللى وزوجها قد سبقانا إلى المطعم، فانضممنا إليهما. جاء يوسف بالشاى والقهوة بلا تعبير على وجهه تقريباً، بدا شاحباً إلى حد ما، لم ينظر إلى وكأننى غير موجودة، كان منصرفا إلى عمله بهمه وجد، تناديه الفتاة الأجنبية ذات الشعر البنفسجى، الجالسة الآن وحيدة دون رفيقها، الذى اعتادت تناول الطعام معه، تضحك، يبتسم يوسف وهو يفرد كفه لها، فتمسكه بيدها، وتحدق فيه بإمعان تارة، وفى عينيه تارة أخرى، وتكلمه بجدية شديدة، يسحب كفه من بين أناملها، ويبتسم برقة ثم يمضى.

تفتى نيللى التى كانت تتابع المشهد مع الجميع:

أظرف شئ فى الجماعة الأجانب أن تصرفاتهم فى منتهى التلقائية والبساطة، وبدون عقد.. أما عندنا، فتصرفتنا

محسوبة ومحبوكة، ونادراً ما نتصرف على سجيتنا: تربيتنا مختلفة جدا عنهم. اغتظت جداً من كلام نيللى، أتمنى أن نسافر بسرعة، أن أغمض عينى وأفتحهما فلا أجد نيللى أمامى، أشفق على ابنى لأن هذه المرأة يمكن أن تصبح حماته. - ذات يوم – أدعو ا ألا تكون ابنتها مثلها وألا تكون لها الشخصية ذاتها.

قررت ألا أصعد بعد الإفطار إلى الحجرة مرة اخرى، فلا شئ لى فيها سوى الحقائب التى يمكن أن يأتى عامل الخدمة بها عندما يحين وقت مغادرتنا الفندق، وكل شئ يخصنى من أوراق فى حقيبة يدى، جواز سفرى والتذكرة. أدخن بعصبية وأنا أرتشف قهوتى، أفكر فى يوسف وأصم السمع عن سخافات نيللى، التى تعلن أخيرا أنها ذاهبة إلى حجرتها لتستكمل ترتيب الحقائب، فيطالبها صالح بالإسراع فى ذلك حتى لا نتأخر عند قدوم السيارة التى ستنقلنا إلى

المطار.

أتمنى حدوث معجزة كيلا أسافر، أن تنشق الأرض وتبتلع الجميع، وأظل وحدى مع يوسف، أن تواتينى شجاعة تهبط على من السماء، أو يباغتنى جنون مفاجئ فأعلن للجميع أننى لن أغادر معهم، وسأبقى هنا لأتزوج يوسف، أن أضع عينى فى عينى صالح دون أن يرف لى رمش، وأقول له: "أنت كبرت يا حبيبى، ولن تحتاجنى بعد الآن، فاتركنى لأعيش حياتى وأرتبط بيوسف"

"طبعا لن تفعلى ذلك يا هاجر لأنك جبانة، حمارة، خليك إذن طوال عمرك فى الشرنقة، خليك مدفونة بالحياة، عاجزة عن إحداث ثقب صغير فى شرنقة الحرير، والطيران بعيدا عن الأوهام، بعيدا فى العالم الأرحب"

"لا.. سأظل هنا، وليكن ما يكون، سأكون شجاعة ولن أسافر". "لا.. مستحيل البقاء، مستحيل أن أفقد عقلى واتزانى،

نزوة وتروح لحال سبيلها. لست أول ولا آخر النساء اللواتى عشن تجربة من هذا النوع. آلاف النساء مثلك يا بنت يولدن ويمتن دون الدخول فى تجربة مثيرة ورائعة من هذا النوع، تجربة مع رجل رائع تتمناه النساء بالأغلبية المطلقة، الآن فقط بعد خوض هذه التجربة، ومعايشة هذه المشاعر الجارفة، عرفت كم كانت زليخة معذورة، مسكينة زليخة، مظلومة، لأن أحداً لم يقدر مدى معاناتها أو يدرك حقيقة عذاباتها"

ابتسمت وأنا أتخيل رد الفعل لو حكيت لأية زميلة من زميلاتى فى شركة المعادن عن حكايتى مع يوسف. يكفينى شرف المحاولة، محاولة الفكاك من الشرنقة، وخوض تجربة من هذا النوع، لا أعرف كيف واتتنى الشجاعة وجرؤت على دخولها مع اروع رجل عرفته فى حياتى.

لكنى أحب يوسف، أعشقه، وهذه هى مشكلتى الحقيقية،

فأنا لم أدخل فى نزوة عابرة معه صحيح أنى لم أحسب نتائج ما فعلته، لكننى كنت جادة، لم أكن عابثة ترغب فى قضاء وقت ممتع والسلام. أشعر باحتياج حقيقى إلى يوسف يجعلنى لا أعرف ماذا أفعل بدونه.

ذهبت إلى صالة الاستقبال وصعد صالح إلى الحجرة، ليكتب خطابا إلى زميل له فى المؤتمر، ويتركه له فى الفندق قبل المغادرة سنسافر بعد حوالى ساعة من الآن بالضبط. سأموت من الحسرة دخل يوسف الصالة مرتين، مرة ليتحدث مع موظف الاستقبال فى أمر ما، ومرة ليأتنى بالشاى الذى طلبته منه عند دخوله فى المرة الأولى، كنت جالسة فى ركن الصالة البعيد عن موظف الاستقبال، لم أتمالك نفسى عندما مضى فناديته وأنا أنظر إليه باسترحام:

يوسف. ولم أتفوه بشئ آخر غير ذلك.

مضى مسرعاً، وسمعت الباب الزجاجى للاستقبال وهو

يفتح ويغلق بعنف. لم أشرب الشاى. بقيت متسمرة فى مكانى ورأسى يغلى بالأفكار، "سأبقى، لابد أن أبقى، هذه فرصتى الوحيدة، هذه فرصتى الأخيرة. لكن هبى يا بنت أنه كذاب أو ألعبان لن يجر عليك إلا الضياع والوحل. هبى أنك اكتشفت بعد البقاء معه عكس ما توقعت: ماذا أنت فاعلة بعد تقطيع علاقاتك بابنك وبعالمك كله؟!

وهل تظنين أن صالحاً سيدع الأمر يمر ببساطة، أليس من المحتمل أن يحجر عليك بتهمة العته والجنون؟ اعقلى واستعيذى با من الشيطان الرجيم.. لا.. لا"

وجدتنى أنهض فجأة، أندفع كالمجنونة مغادرة المكان، حتى أإن موظف الاستقبال رفع رأسه عن الأوراق التى أمامه مندهشاً، جريت أصعد السلالم إلى حجرتى، دفعت الباب ودخلت، وجدت صالحاً فى الحمام، عندما خرج قلت له بسرعة:

صالح.. لن أسافر معك

نظر إلى جازعا وقال:

مالك يا ماما!.. شكلك متغير! هل حصل لك شئ؟

صالح.. أنا قررت أن أتزوج

بدا غير مصدق لما أقول، بل ظن أننى جننت فقال:

ماما.. هذا كلام غريب جدا منك!. متى قررت ذلك؟

ستتزوجين بمن؟

صالح.. لا تناقشنى الآن. أرجوك. سأكتب لك خطابا مفصلاً عن كل شئ.

امتقع وجهه وأخذ يرتعش وهو يقول:

ستتزوجين بمن يا ماما، قولى من فضلك.

يوسف يا صالح.

يوسف.. من يوسف؟

الذى تصورت معه اليوم يا صالح.

الجرسون..؟! مستحيل.. أنت جننت يا ماما؟! عقلك طار؟! مستحيل!

صالح لا مناقشة الآن، الوقت يمر بسرعة، خلنا فى العملى، طبعا نيللى وزوجها سيفاجآن بالخبر، لا تقل لهما شيئاً عن الموضوع أخبرهما أننى اكتشفت بالصدفة وجود أقارب لنا يعيشون فى هذه المدينة، وأنهم عرفوا بوجودى فكلمونى بالهاتف وأصروا على أن أبقى معهم أسبوعا آخر.

وقف كمن لا يصدق، أخذ يحدق فى، تحشرج صوته وشعرت بجفاف حلقه وهو يقول:

مستحيل يا ماما.. أنت لاتتكلمين بجد. طظ فى نيللى، طظ فى الدكتور إبراهيم: أنا لا يهمنى ما سأقوله لهما، المهم أنت!

أنا أحب يوسف ياصالح، سأرتبط به، سأتزوجه سأبقى معه، ولن أناقش ذلك الآن.

متى تم ذلك يا ماما، لم يمر علينا إلا أقل من أسبوع هنا، مستحيل أن تقررى هذا القرار الخطير فى أقل من أسبوع، ثم إنه جرسون، جرسون يا ماما، وأنت واحدة محترمة، ومركزك محترم، وابنك انسان محترم، مستحيل أن تنزلقى إلى مستوى جرسون.

صالح، قلت لك لا وقت للنقاش الآن، سأذهب قبل نزول نيللى وزوجها. خذ عنوانى فى هذه المدينة.

أخرجت قلما وكتبت له العنوان على طرف صفحة من المجلة التى كنت أقرأها بالحمام. أمسك المجلة وقرا ما كتبت وسألنى:

عنوان من هذا؟!

عنوان يوسف يا صالح، راسلنى عليه، سأطلب سيارة. اتجهت إلى الهاتف ورفعت السماعة، اقترب منى صالح محاولا منعى، نظرت إليه بحده فتوقف. جلس على السرير

منهاراً وبدأ يبكى، أدرت قرص الهاتف وطلبت سيارة أجرة، أخبرونى أنها ستحضر بعد خمس دقائق، جلست إلى جوار صالح، احتضنته وبكيت، وكنت فى حالة غريبة جدا.